إريك إيمانويل شميدت

أوسكار والسيدة الوردية

رواية





ترجمة: آنا عكّاش

إريك إيمانويل شميدت

أوسكار والسيدة الوردية

رواية

ترجمة: آنا عكاش



أوسكار والسيدة الوردية

• إريك إيمانويل شميدت
• أوسكار والسيدة الوردية
• ترجمة: آنا عكاش
• مراجعة: د. نبيل الحفار

• الطبعة الأولى 2015
• الناشـــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق☎ 5141441
• الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
• الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
• التوزيـــــــع: دار ورد☎ 5141441 ص. ب 30249

تقديم

إن المدهش في هذه الرواية القصيرة أو القصة الطويلة «أوسكار والسيدة الوردية» للكاتب الفرنسي إيريك إيمانويل شميدت، هو تعدد الموضوعات الجانبية التي تدور في فلك الموضوع الرئيسي - مواجهة الموت - فتضيئه من جوانب مختلفة، وتغنيه وتكشف عن المعاناة المعقدة والمشاعر المضطربة التي تنتاب الإنسان في مثل هذه الحالة. موضوعات مثل: العزلة، الشعور بالوحدة، الإحباط، الإعاقة، التواصل، الألم، الحزن، الخوف، ولوج حالة الموت، الحب، الأمل، الفرح، الشعور بالفردية، البقاء، الزمن، الصدمة، العلاقة مع الأسرة، الجنس، الإيمان، الصلاة كعلاج، الحرية، تجربة المرض، جو المستشفى، العناية بحب والعناية كواجب، أخلاق المريض وأخلاقية الطبيب. كل هذه الموضوعات وغيرها تمر في مخيلة المؤلف لتنسرب إلى قلمه بانسيابية مرهفة وحرفية ذواقة بهدف تصوير مأساة أوسكار التي انتهت نهاية مبهجة وخفيفة الظل، على الرغم من كل إشكالياتها.

صحيح أن الكاتب شميدت نفسه قد مر في طفولته بتجربة مرض شبيهة بحالة أوسكار في ظروف المستشفى، إلا أنه تجاوزها ونجا عائداً إلى الحياة بنهم وعطش شديدين، معتبراً الحياة هدية ثمينة لا يجوز أن تهدر.

ولكن إذا التفتنا إلى القصة الطويلة «الأمير الصغير» للكاتب الفرنسي والطيار أنطوان دي سان أكزوبري وإلى رواية «عالم صوفيا» للكاتب السويدي يوستن غاردر، وإلى الطفلة سكاوت في الرواية الوحيدة «أن تقتل طائراً غريداً» للكاتبة والمحامية الأميركية هاربر لي، ألا تنجلي أمام أعيننا ملامح ظاهرةٍ في عالم الأدب الحديث تميل إلى وضع أكثر الأسئلة تعقيداً على ألسنة أطفال صغار، وتعرض مشاكل الحياة والدنيا من منظور طفلي، لأنها تصير أخف ظلاً وأكثر براءة وأكثر تقبلاً!

لقد طرح شميدت في قصته الطويلة هذه مشكلة فلسفية وحياتية بالغة التعقيد منذ الأزل، وأظنها ستبقى كذلك إلى الأبد، وهي قضية مواجهة الموت باعتباره نهاية ومجهولاً، نهاية باترة لكل ما يرتبط بحياة الفرد الإنسان مهما كان شأنه، ومجهولاً لأنه لغز لم يكشف أحد ما وراءه حتى الآن، على الرغم من تباين مواقف الماديين والمثاليين منه، أو حسبما صورته مختلف الأديان منذ بداية الخليقة وحتى الآن. لكن هذه المشكلة عند شميدت لا تبدو معقدة أو مخيفة، على الرغم من كوننا مع الطفل أوسكار في

المستشفى محاطين بشتى أنواع الأمراض المزمنة والخطيرة والأقل خطراً. إذ إن مخيلة شميتت الخصبة وفكره الإنساني وقلمه البارع قد اشتركوا معاً في ابتكار شخصيتين أدبيتين يصعب أن تُمحيا من الذاكرة، لعمق ملامحهما وبساطتهما في آن معاً، وهما كما ورد في عنوان العمل الفني، الطفل أوسكار ذو العشر سنوات، المصاب بنوع من سرطان الدم يستعصي شفاؤه بالعلاجات المتوافرة حالياً، ولا حتى بالعمل الجراحي، والسيدة الوردية، العجوز المتبرعة بوقتها وراحتها لتقدم الرعاية للأطفال المرضى، والتي كرّست كل وقتها في أيامه الاثني عشر الأخيرة لمرافقته لحظة فلحظة، كما استضافت والديه في منزلها القريب من المستشفى في أثناء أيام عيد الميلاد لتسهل عليهما التواصل مع طفلهما المحتضر.

وهاتان الشخصيتان هما من الغنى الإنساني والأدبي والخيالي بحيث جعلا من هذه القصة الطويلة رائعة فنية، ترجمت حتى الآن إلى ما يزيد على خمس وثلاثين لغة. ليس هذا وحسب، بل أغرت بنيتها الفنية ومقولتها الفكرية وشخصياتها الطريفة بعض المسرحيين بإعدادها للمسرح، ونجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً في عدة بلدان أوروبية، تماماً مثلما حدث مع «الأمير الصغير» التي مازالت تعرض حتى الآن في بعض مسارح فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا.

إن اللقاء بين هاتين الشخصيتين يمثل ذروة التحول الدرامي في سيرة أوسكار وشخوصٍ كثيرة من حوله، مثل الطفلة المريضة بيغي بلو ووالديه وحتى الطبيب المختص دوسلدورف. فقد كان المريض أوسكار في بداية الأحداث التي نتابعها في القصة على مدى اثني عشر يوماً في المستشفى ومنزل السيدة الوردية طفلاً وحيداً معزولاً مرتبكاً مضطرب المشاعر، ومنصاعاً في الوقت نفسه لجميع إجراءات العلاج الكيماوي ولعملية زرع نخاع العظم وما ترتب عليها، من دون تذمر أو تأفف، لدرجة أن انتاب الجهاز الطبي الشعور بالإشفاق عليه مع العجز عن القيام بأي فعل لمساعدته معنوياً أو مادياً. في حين شعر أوسكار بأنه قد صار عائقاً في طريق تقدم الطب، لأن جسمه لم يستجب للعلاج المفترض، ومن ثم فإن استمرار وجوده بينهم على قيد الحياة بمثابة تذكير مستمر بالإخفاق من طرف الجهاز الطبي، وبالذنب من طرفه. ولقد نشأ أوسكار في حضن عائلة لا تؤمن بالرب والدين، لكنها تتمسك بتقاليد بابا نويل وهداياه. فلا عزاء إذن من أي نوع كان، ولا ملجأ سوى الواقع الصريح.

في هذه الظروف الموئسة الحالكة تظهر في حياة أوسكار السيدة الوردية التي تختزن في شخصيتها حكمة الحياة والدين والفلسفة بكافة تجلياتها، مع مخيلة صارخة وطريفة في الوقت نفسه، ولسان حاذق نكي، هو انعكاس

لنفسيتها البالغة الإنسانية، ولكن من دون مجاملات بقصد المواساة والمراعاة، بل انطلاقاً من إدراك الحالة المرضية وتفهم انعكاسها النفسي واستيعابها من كافة الجوانب، في محاولة لإيجاد المعبر الملائم والمفيد في الوقت نفسه حتى بلوغ النهاية الحتمية. ومن هنا يأتي اقتراح السيدة الوردية لأوسكار بأن يكتب رسائل يوجهها إلى الله الذي يكبر وجوده كلما ازداد إيمان الإنسان به، والذي لا يلبي سوى الأمنيات الروحانية كمنح الصبر أو الشجاعة، وليس السكاكر والألعاب مثل بابا نويل. فيقنع أوسكار بكلام السيدة الوردية ذات التاريخ المذهل في ميدان مغامرات المصارعة الأميركية الحرة وأعلامها من النساء الغريبات من حيث المؤهلات والقدرات وأساليب الخداع. وهي تستشهد بهذه الأحداث أمامه برهاناً على مصداقية أقوالها. فيبدأ أوسكار بتدوين رسائله اليومية التي يختلف طولها حسبما يسجل فيها من وجهة نظره أحداث وأفكار كل يوم بيومه، والتي تبلغ اثنتي عشر رسالة حتى موته، تختتمها السيدة الوردية بالرسالة الثالثة عشرة التي تخبر فيها الرب حيثما وجد (والقارئ في الوقت نفسه) بكيفية موت أوسكار واختياره اللحظة المناسبة لذلك، في أثناء غياب السيدة الوردية مع والديه عنه مدة نصف ساعة في مقهى المشفى، لكي يجنبهم ألم معايشة التجربة. بعد بضعة أيام من بدء تدوين الرسائل تأخذ السيدة الوردية أوسكار إلى كنيسة

المستشفى حيث يلتقي بتمثال السيد المسيح المصلوب المدمى، وتشرح له الفارق المهم بين الألم الجسدي والمعاناة الروحية، بما يجعله يعي حالته تدريجياً، ويُعد نفسه لاستقبال النهاية، مع التفكير بأن كل يوم يمضي يعادل عشر سنوات من التجربة الحياتية. وهكذا يعيش أوسكار ما تبقى من أيامه في مواجهة الموت بوعي الحياة كفرصة يجب أن تعاش بكافة أبعادها لتكتسب معنى الهدية الثمينة، فيتدرج في خوض مراحل الحياة من الطفولة إلى المراهقة والفتوة والرجولة والنضج، فالكهولة و الشيخوخة والنهاية، مروراً بحالة الحب الأكبر في حياته وكل ما يتعلق بها من مشاعر التنافس وإسباغ الحماية وكسب الثقة وحب المحبوبة وتشجيعها، ثم حمل مسؤوليتها تجاه المجتمع كرجل وزوج ناضج أمام ذويها. والتجربة المساوية من حيث الأهمية هي تصالحه مع والديه بإدراكه طبيعة مشاعرهما المختلطة والمضطربة تجاهه عبر مراحل مرضه، ما بين الخوف من المرض من جهة والخوف على الابن المريض من جهة أخرى.

لم تتعامل السيدة الوردية مع أوسكار كمريض بحاجة إلى المراعاة والشفقة، بل كطفل عادي تماماً، فكانت تلمسه وتُقبله وتحضه على السرعة أثناء النزهة، وتدخل خلال ذلك إلى عقله وقلبه لتنبّهه على نحو غير مباشر إلى ضرورة أن يعيش الحياة بتفاصيلها وأن يستوعب الآخرين ومشاكلهم

بملء قلبه بالحب والإيمان، وقد نجحت في ذلك، لا على مستوى أوسكار وحسب، بل بتأثير طريقتها في القراء والمشاهدين أيضاً.

لقد قاد شميدت أحداث وشخصيات قصته الطويلة نحو القناعة بأن الإيمان الشخصي النابع من بؤرة التجربة هو الذي يوصل الإنسان إلى الخلاص الحقيقي، من دون وعظ ولا تبشير.

د. نبيل الحفار



Twitt

مقدمة

إريك إيمانويل شميدت، كاتب مسرحي، كاتب مقالة، روائي، وكاتب سيناريو فرنسي. ولد إريك ايمانويل شميدت في الـ 28 من آذار عام 1960 في ليون. كان يستعد ليصبح مؤلفاً موسيقياً فدرس العزف على البيانو، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الموسيقا إضافة لعلم اللاهوت والميتافيزيقا هوس حياته.

قال لاحقاً في إحدى المقابلات: «الموسيقا تقول الحقيقة دائماً، الإدراك والذكاء يأتيان في المرحلة التالية.. الشيء نفسه يحدث عندما أكتب مسرحية. أحاول دائماً أن أسمع موسيقا الروح، أي شيئاً أكبر من مجرد كلمات».

إضافة إلى الموسيقا كان الصبي مولعاً أيضاً بالتأليف: ففي الحادية عشرة من عمره كتب أول كتاب، وفي السادسة عشرة أول مسرحية «غريغوار، أو لِمَ البازلاء خضراء» وهي مسرحية ساتيرية تتناول فكرة التربية الجنسية. وفي النهاية تغلبت الكلمة على الموسيقا.

فبعد أن أنهى دراسته في باريس حائزاً على شهادة المعهد العالي للتربية والتعليم ذي السمعة الجيدة (إيكول نورمال سوبيريور) ودافع عن أطروحة في الفلسفة عن دنيس ديدرو (في فترة لاحقة كتب مقالة بعنوان «ديدرو أو فلسفة الإغراء») بدأ شميدت بتدريس الفلسفة، بداية في مدرسة شيربور، ثم في جامعة شامبيري. ولكنه لم يُطل البقاء هناك كثيراً، فقد ضحّى بعمله العلمي لصالح الأدب. رافق النجاح شميدت منذ أول تجربة درامية راشدة: «الليلة الفالونية» 1991 التي قدمها مسرح شكسبير الملكي. وفي المسرحية الثانية «الزائر» 1993 يزور سيغموند فرويد - في اليقظة أو في الحلم - مجنونٌ أو إله، فيدور بينهما حوار فلسفي عميق - ولكنه غيرممل - عن الكينونة البشرية، عن الموت وعن الدين. أمّنت له هذه المسرحية اعتراف النقاد به (جائزة موليير عام 1994 في تسميتين: «الاكتشاف المسرحي» و«أفضل كاتب مسرحي»). وازدادت النجاحات، فمسرحية «التغييرات الغامضة» (أفضل مسرحية لعام 1996) التي مثّل فيها آلان ديلون قامت بجولة عالمية من طوكيو وحتى لوس أنجلوس مترافقة بتصفيق الجمهور العالي. ثم «المفكر الحر» (1997، عن دنيس ديدرو) - وهي تتناول تاريخ يوم واحد داعر لبطل شميدت المحبوب، وقد تم تحويلها إلى فيلم سينمائي من بطولة فانسان بيريس وفاني آردان. في الحقيقة لم يلقَ

الفيلم نجاحاً. فالسينما لا تحب الحوارات، حتى ولو كانت مثيرة كالتي يكتبها شميدت.

ومن ثم «فريدريك، أو بولفار الجرائم» 1998 التي حازت مجدداً على جائزة موليير، وقد أدى الدور الرئيسي في المسرحية الباريسية جان بول بلموندو. في عام 2001 منحت الأكاديمية الفرنسية للمسرحي شميدت «الجائزة الكبرى». عدا المسرحيات كتب شميدت الروايات، وحاز أيضاً على جوائز، فقد حصلت روايته «طائفة الأنانيين» على جائزة «الرواية الأولى» (1994، دار نشر آلبين ميشيل). ولكن حصة النجاح الكبرى حصلت عليها رواية «إنجيل بيلاطس» 2000 التي عمل عليها الكاتب مدة ثماني سنوات. وما دفعه لكتابة هذا الموضوع، وفق كلمات شميدت نفسه، هي ليلة واحدة من العام 1989 قضاها في الصحراء حيث حدثت معه تجربة صوفية، وبعدها ـ وهو الذي ولد في عائلة من الملحدين ـ بدأت علاقة خاصة بينه وبين الإله. والرواية في جزأين، الجزء الأول «المسيح» يتحدث عن إنسان تسيطر عليه الشكوك قبل ساعات قليلة من الموت. وفي مونولوجه (الطريقة الأدبية المفضلة لدى شميدت) يظهر المسيح متواضعاً وبسيطاً، لم يفكر لفترة طويلة برسالته. والجزء الثاني «بيلاطس» مكتوب بأسلوب يوميات على شكل رسائل: ففي رسالة إلى الأخ تيتوس يحاول بيلاطس البنطي ـ بإيمانه الذي لا يتزعزع بالعقل ـ أن

يدرس بدقة وبراغماتية ظاهرة لا يمكن تفسيرها وهي اختفاء جسد المسيح، محاولاً التغلب على الحماسة المفرطة ونفاد صبر المحيطين. في النتيجة يتراجع الفكر الروماني أمام الشكوك اليهودية. ومع كل هذا حازت «إنجيل بيلاطس» على أعلى نسبة من المبيعات وعلى «الجائزة الكبرى» لقارئات مجلة «Elle».

وفي العام التالي، 2001، أصدر شميدت «مشاركة الآخر» حيث يُحَضّر لأدولف هتلر مصير الفنان المتحقق، ونتيجة ذلك لا يصبح ذاك ديكتاتوراً، ويتحرك تاريخ البشرية باتجاه آخر. من الواضح أن التربية الفلسفية، والميل لفهم العالم بشكل منظم وعميق يميز كثيراً إبداع الكاتب. فغالباً ما يختار أبطاله من شخصيات كونية من التاريخ العالمي والميثولوجيا ـ المسيح وبيلاطس البنطي، ديدرو وهتلر، فاوست (في مقالة «عندما كنتُ عملاً فنياً») والممثل الرومانسي فريدريك ليميتر ـ داخل شميدت يعيش مثقف ومُبشِّر إلى حد ما. ولهذا فإن « سلسلة عن الخفايا» تحتل مكانة خاصة في أدبه، وتتضمن أربعة نصوص: «ميلاريبا» 1997، «السيد إبراهيم وأزهار القرآن(*)» 2001، «أوسكار والسيدة الوردية» 2002، والإصدار الأخير «الطفل نوح» 2004. الفكرة التي توحد «سلسلة عن الخفايا» هي

(*) صدرت ترجمتها بالعربية عن دار ورد.

الروحانية والدين. الاعترافات الدينية ـ البوذية في «ميلاريبا»، الإسلام واليهودية في «السيد إبراهيم وأزهار القرآن»، المسيحية في «أوسكار والسيدة الوردية» ـ تستعرض بشكل فني وترتبط بسير حياتية إنسانية محددة (قبل كل شيء سير حياة أطفال). ويصنف شكل هذه الأعمال الأدبية القصيرة بعدة طرق. فالبعض يصنفها كروايات والبعض كمونودراما (لأنها مكتوبة بضمير المتكلم)، والبعض الآخر كحكايات أطفال. فبعض النقاد يجدون تشابهاً بين أوسكار والأمير الصغير أو مع بطل «بيناك» بنجامان مالوسان. بطريقة أو بأخرى من الأرجح أن هذه الأعمال مكتوبة للعرض وليس للقراءة. فهي تُمَثَّل بنجاح كبير: فدانييل داريو يمثل «أوسكار» في «الكوميدي شان إليزيه»، ويمثل دور «السيد إبراهيم» (في السينما أيضاً) عمر الشريف وعليه حصل على جائزة السيزار الأولى له عام 2004.

إن روعة «أوسكار» و«السيد إبراهيم» تكمن برأيي في حماسة طاقتها. ليس هناك تناقض وعدائية بين البشر المنتمين إلى قوميات وأديان مختلفة. هناك قابلية لاختيار المعتقد، الأصدقاء وحتى الأسرة. هناك الحكمة في تقبّل كل شيء، الكبار (السيد إبراهيم، السيدة الوردية) يعلّمون الصغار (مومو، أوسكار) المصالحة مع الحياة، المرض والموت. ويتبين أنك تستطيع أن تعيش حياة كاملة في آخر

عشرة أيام متبقية لك. إذا كنت تؤمن بالطبع. وهنا يقوم شميدت بما يميزه من مهارة بالتوازن على حافة ضيقة. فما هي إلا شعرة وقد تهوي العاطفية (في «أوسكار والسيدة الوردية»). وما ينقذها هو النبرة البسيطة جداً، والتي من دونها ما كان ليوجد هناك الطابع الانفعالي وروح الدعابة أيضاً.

إيرينا مياغكوفا (•)

(•) إيرينا مياغكوفا: ناقدة مسرحية وناقدة فنية ومترجمةعن اللغة الفرنسية. مؤلفة عدد كبير من المقالات، وكذلك ترجمات لنصوص مسرحية. عضو شرف في «سعفة النخيل الأكاديمية» الفرنسية.

إلهي العزيز...

اسمي أوسكار، وعمري عشر سنين، لقد أضرمت النيران بالقطة، وبالمنزل (أظن أن السمكات الذهبية قد شُوِيَت أثناء ذلك أيضاً)، وأنا أكتب إليك للمرة الأولى، لأنني لم أكن أملك الوقت من قبل، بسبب المدرسة.

أحذرك على الفور: أنا لا أطيق الكتابة. إلا إذا أرغموني! لأنني أكره كل تلك المنحنيات، وجرّات القلم وإلى آخره. الابتسامات الكاذبة والزخرفة. الكتابة هي من اختصاص الكبار.

كيف أبرهن على ذلك؟ بل حتى ببداية رسالتي نفسها: «اسمي أوسكار، وعمري عشر سنين، لقد أضرمت النيران بالقطة، وبالمنزل (أظن أن السمكات الذهبية قد شويت أثناء ذلك أيضاً)، وأنا أكتب إليك للمرة الأولى، لأنني لم أكن أملك الوقت من قبل بسبب المدرسة»... كان يمكنني أن أكتب: «اسمي الأصلع، أبدو وكأنني في السابعة من عمري،

أعيش في المستشفى لأنني مريض بالسرطان، ولم أكتب لك لأنني كنت أشك بوجودك». ولكنني لو كتبت هكذا لترك ذلك انطباعاً سيئاً، ولم تكن لتنشغل بي. وأنا بحاجة إلى أن تنشغل بي. ويناسبني جداً أن تجد وقتاً كي تخدمني خدمتين أو ثلاثاً.

سأشرح لك الآن.

مستشفاي مكان ممتاز. وحولي كومة من الكبار وكلهم في مزاج ممتاز ويتحدثون بصوت عال؛ كومة من الألعاب، السيدات الورديات، اللواتي يسلين الأطفال، وكذلك أطفال في مثل عمري من نمط آينشتاين، بوبكورن، أو «شحم الخنزير المدخن». بالمختصر، إن كنتَ مريضاً محلياً يمكنك تماماً أن تصطاد كيفك هنا. ولكن أمور الكيف ما عادت تمشي معي. فبعد زراعة نقي العظام أصبحت المتع نادرة. عندما يأتي الدكتور دوسلدورف في جولته الصباحية ولا يستطيع أن يسمع صوت قلبي، يستاء مني كثيراً. وينظر إليّ بصمت كأنني مذنب. رغم أنني بذلت جهداً كبيراً أثناء العملية؛ فقد أحسنت السلوك، وسمحت لهم أن ينومونني بهدوء، كنت أتألم لكنني لم أصرخ، وتناولت جميع الأدوية بإذعان. تمر أيام تراودني فيها رغبة بأن أصرخ في وجهه، وأن أقول له بصراحة إنه من المحتمل أن يكون هو، الدكتور دوسلدورف نفسه، مع حاجبيه الأسودين هو من أفسد العملية. ولكن مظهره حزين لدرجة

أن الاتهامات تعلق في حلقي. وكلما أطال الدكتور الحزين دوسلدورف سكوته أشعر أعمق بذنبي. لقد بات لي واضحاً: أنا مريض سيء، لأنني أعرقل الثوابت على أن الطب هو شيء جيد. لا بد أن أفكار الأطباء معدية. ولذلك الآن، الطابق كله - من ممرضات ومتمرنين وجليسات ينظرون إلي بتعابيره نفسها. إن مظهرهم حزين، وعندما يكون مزاجي جيداً يضحكون مُرغمين عندما أُنكّت. وإن أردتم الصراحة ما عاد أحد هنا يمزح كما في السابق.

فقط الماما الوردية لم تتغير. وأعتقد أنها قد أصبحت عجوزاً جداً كي تتغير. وإضافة إلى ذلك إنها سيدة وردية زيادة عن اللزوم. أنا لا أقوم بتعريفك عليها يا إلهي لأنه من المؤكد أنها صديقتك الصدوقة، فهي التي طلبت أن أكتب لك. المشكلة تكمن في أنني أنا الوحيد الذي يدعوها بالماما الوردية. وأنت ستضطر لبذل مجهود كي تفهم عمن بالذات أتحدث. وهكذا، ومن بين جميع السيدات بالأرواب الوردية اللواتي يأتين خصيصاً إلى المشفى ليقضين الوقت مع الأطفال المرضى، هي الأكثر قِدماً.

- كم صار عمرك أيتها الماما الوردية؟

- وهل ستتمكن يا صديقي أوسكار من تذكر عدد من ثلاثة عشر رقماً؟

- أنت تمزحين!

ـ لا. لا داعي أن يعرف أحد هنا بعمري وإلا طردوني وعندها لن نلتقي مجدداً.

ـ لماذا؟

ـ أنا هنا بشكل غير قانوني. توجد حدود عمرية محددة للسيدات الورديات. وأنا خرقتها منذ زمن طويل.

ـ هل انتهت صلاحيتك؟

ـ أجل.

ـ مثل اللبن المُحلّى؟

ـ هسس...

ـ حسناً! لن أخبر أحداً...

وبهذه الشجاعة المتهورة أمّنتني على سرها. ولكن يمكنها ألا تشك بي. سوف أسكت، رغم أنني أستغرب حين أفكر أنه من الممكن أن يخطئ أحد في تقدير عمرها حين يرى التجاعيد التي تحيط بعينيها كأشعة الشمس.

في مرة أخرى عرفت سراً آخر من أسرارها، ومؤكد أنه سيفيدك يا إلهي في معرفة ماماي الوردية. كنا نتنزه مرة في حديقة المشفى فدَعَستُ في الطين.

ـ اللعنة!

ـ هذه كلمة سيئة يا سيدتي.

ـ لا تتدخل أيها الصبي فأنا أتحدث كما أريد.

ـ أوه!

ـ ثم أسرع! فنحن في نزهة ولسنا في سباق سلاحف.

وعندما جلسنا لنُسكِت جوعنا بسُكّرة، سألتها:

ـ كيف حصل أنك تستخدمين كلمات كهذه؟

ـ إنها ضريبة المهنة يا صديقي أوسكار. فما كنت لأنجو في مهنتي إن كنت أتكلم بلباقة زائدة.

ـ وما كانت مهنتك؟

ـ لن تصدقني...

ـ أقسم بأنني سأصدقك...

ـ المصارعة الأميركية الحرة.

ـ لا يعقل!

ـ أقول لك بأنني مصارعة. حتى أنهم سموني «مخرجة الأحشاء اللانغيدوغية».

فيما بعد، وعندما كانت تنتابني الأفكار السوداء، وهي كانت متأكدة أن لا أحد يتنصت علينا، حكت لي الماما الوردية عن أهم مبارياتها: «مخرجة الأحشاء اللانغيدوغية» ضد «صانعة النقانق الليموزينية». أو عن منافستها التي استمرت عشرين عاماً مع «الشيطانة

سينكلير»، وهي هولندية تمتلك بدل الصدر قذيفتين. وخاصة عن كأس العالم حيث تصارعت مع «أوللا ـ أوللا» الملقبة بـ «القحبة البوخيفالدية» التي لم يستطع أحد التغلب عليها من قبل. لم تتمكن من ذلك حتى «الفخذين الفولاذيين» التي كانت قدوة ماماي الوردية حين كانت مصارعة. كنت أحلم بهذه المعارك متخيلاً صديقتي على الحلبة في شكلها الحالي ـ صغيرة، عجوزاً، في ثوب وردي، بيديها المرتجفتين ـ تدق عملاقات يرتدين فانيلات رياضية واحدة بعد الأخرى. كنت أرى نفسي مكانها. كنت أصبح أقوى. كنت أشعر أنه قد ثُئِرَ لي.

وهكذا، إن لم تستطع مع كل هذه التلميحات يا إلهي أن تعرف الماما الوردية، هذا يعني أنه حان الوقت لتتقاعد، وأنك ما عدت صالحاً لأداء دورك. أظن أنني كنت واضحاً إلى حد معقول؟

والآن سأعود إلى موضوعي.

أكرر، إن زرع نقي العظام لي أحبط الكثيرين هنا. والعلاج الكيميائي لم يكن ساراً أيضاً، لكن عندها كان هناك أمل من الزرع وكانت الأمور تبدو غير ميؤوس منها إلى هذا الحد. أما الآن فلدي انطباع أنه ليس لدى الأطباء ما يقترحونه رغم أنهم يشفقون عليّ. لدى الدكتور دوسلدورف ـ الذي تعتبره أمي جميلاً بينما أنا أراه

كـ «أبو حواجب» زيادة عن اللزوم ـ تعابير وجه بائسة جداً وكأنه بابا نويل الذي لم تكفِ هداياه للجميع.

الجو ما عاد جيداً. لقد تحدثنا عن ذلك أنا وصديقي «شحم الخنزير المدخن». في الحقيقة اسمه إيف، ولكننا سميناه بشحم الخنزير المدخن، فهذا يليق به أكثر، لأن النار نالت منه كثيراً.

ـ أظن يا شحم الخنزير المدخن أنني ما عدت أروق للأطباء، فمزاجهم يُخرّب بسببي.

ـ عن ماذا تتكلم أيها الأصلع؟ إن الأطباء عديمو الشفقة ودائماً تنتابهم رغبة في أن يقصّوا شيئاً ما. وفقاً لحساباتي عرضوا علي عمليات ست مرات على الأقل.

ـ ربما كنت تسبب لهم الإلهام.

ـ يجب أن أفكر.

ـ ولكن لماذا لا يقولون ببساطة إنني سأموت قريباً؟

وهنا تصرف شحم الخنزير المدخن تماماً كما الكل في المشفى: لقد صار أصماً. فما أن يلفظ المرء في المشفى كلمة «الموت» حتى يتوقف الجميع عن سماعك. كن واثقاً أن في أذن المستمع إليك تتشكل على الفور سدادة هوائية، ويغير الحديث في اتجاه آخر. لقد جربت ذلك على الكل. ماعدا الماما الوردية.

في ذلك الصباح أردت أن أتأكد هل ستصابُ هي أيضاً بالصمم بعد سؤالي.

ـ أيتها الماما الوردية أعتقد أن لا أحد يريد أن يقول لي بأنني سأموت قريباً.

إنها تنظر إلي. هل ستكون ردة فعلها كما الآخرين؟ أرجوك يا «مخرجة الأحشاء اللانغيدوغية» أبقي أذنيك منتصبتين ولا تصمّي.

ـ ولماذا تقول ذلك يا أوسكار طالما أنت تعرف كل شيء؟

أوف.. لقد سمعتني!

ـ أيتها الماما الوردية يخيل إلي أنهم اخترعوا مشفى آخر بدل هذا الذي يوجد في الواقع. إنهم يتصرفون وكأن المرء يأتي للمشفى كي يشفى فقط. ولكن في الواقع هناك من يموت هنا أيضاً.

ـ أنت محق يا أوسكار. أعتقد أن الضلالة نفسها تمس الحياة أيضاً. فنحن ننسى أنها زائلة، غير ثابتة، فانية. ونتظاهر بأننا خالدون.

ـ هل أجروا لي عملية غير ناجحة؟

لم تجب الماما الوردية. كانت هذه طريقتها في الرد

بالإيجاب. وعندما تأكدَتْ أنني فهمت، اقتربَتْ وسألتني بصوت متوسل:

ـ أنا لم أخبرك بشيء؟ لن يزل لسانك؟

ـ أبداً!

صمتنا قليلاً: إنه وقت مناسب لهضم أفكار جديدة.

ـ لم لا تكتب لله يا أوسكار؟

ـ لا، إلا أنت أيتها الماما الوردية!

ـ إلا أنا؟

ـ إلا أنت! كنت أظن أنكِ أنت على الأقل لا تكذبين.

ـ ولكنني لا أكذب.

ـ إذن لماذا تحدثينني عن الله؟ فقد كذبوا علي في السابق في مسألة بابا نويل. وهذا كافٍ.

ـ إن الله وبابا نويل شيئان مختلفان تماماً يا أوسكار.

ـ لا، إنهما الشيء نفسه. يلوثان الدماغ وما إلى ذلك!

ـ إذن فأنت تعتقد أنني أنا، المصارعة السابقة، التي خاضت مئة وخمساً وستين معركة، من بينها مئة وستون فوزاً، ثلاثة وأربعون منها بالضربة القاضية، هل أستطيع أنا، «مخرجة الأحشاء اللانفيدوغية» أن أؤمن ولو لثانية واحدة ببابا نويل؟

ـ لا.

ـ إذن، أنا لا أؤمن ببابا نويل لكنني أؤمن بالله.

وهكذا، غيرت كلماتها هذه كل شيء.

ـ ولماذا أكتب لله؟

ـ كي لا تشعر بنفسك وحيداً إلى هذا الحد.

ـ لا أشعر بالوحدة مع شخص غير موجود من الأساس؟

ـ إذن اجعله موجوداً بالنسبة إليك.

وانحنَتْ إليّ.

ـ كل مرة تؤمن فيها به سيصبح وجوده أكبر قليلاً. وإذا أصبحت تؤمن بإصرار، فسوف يعيش داخلك بكل قوته. وعندها سيفعل لك الخير.

ـ وماذا أكتب له؟

ـ أخبره بما تفكر. تلك الأفكار التي لا تقولها بصوت مسموع، أقصد تلك التي تثقل عليك، تلاحقك، تزعجك، تقيدك، والتي تحل محل الأفكار الطازجة وتفسّخك من الداخل. وإذا لم تفصح عنها ستجازف بأن تصبح قمامة مزكمة للأفكار القديمة.

ـ موافق.

ـ إضافة إلى ذلك تستطيع أن تطلب من الله شيئاً ما. شيئاً واحداً فقط كل يوم. ليس أكثر من واحد!

ـ ضعيف إلهك أيتها الماما الوردية. فحتى علاء الدين يحق له أن يطلب من مصباحه السحري ثلاث أمنيات.

ـ أمنية واحدة في اليوم أفضل من ثلاث أمنيات خلال عمرك كله. موافق؟

ـ موافق. إذن أستطيع أن أطلب منه كل ما أريد؟ السكاكر، الألعاب، السيارة..

ـ لا يا أوسكار. فالله ليس بابا نويل. يمكنك فقط أن تطلب أشياءً روحانية.

ـ مثلاً؟

ـ أن تطلب الشجاعة، الصبر، الاستنارة.

ـ حسناً، لقد فهمت.

ـ يمكنك أيضاً أن توحي إليه بأن يظهر الرحمة للآخرين أيضاً.

ـ بأمنية واحدة في اليوم! لا تتفوهي بالسخافات ياسيدتي، سأستفيد منه لنفسي أولاً!

حسناً، وهكذا يا إلهي، في رسالتي الأولى حدثتك قليلاً عن الحياة التي أعيشها هنا، في المشفى، حيث يعتبرونني الآن عقبة في طريق تطور الطب، ولذلك أردت أن أطلب منك

الاستنارة بخصوص شفائي. أجب بنعم أو لا. هذا ليس صعباً جداً. نعم أو لا. يمكنك ببساطة أن تشطب الكلمة غير الضرورية.

إلى الغد، قبلاتي،

أوسكار.

ملاحظة: لا أعرف عنوانك. ما العمل؟

إلهي العزيز...

كم أنت قوي! أعطيتني الجواب حتى دون أن تنتظر أن أرسل لك الرسالة. كيف استطعت فعل ذلك؟

صباح اليوم كنت ألعب الشطرنج مع آينشتاين في قاعة الاستراحة، وفجأة أتى بوبكورن وقال:

- لقد وصل والداك.

- والداي؟ لا يمكن ذلك. فهما لا يأتيان سوى أيام الآحاد.

- رأيت سيارتهما - جيب حمراء ذات سقف أبيض.

- لا يعقل.

هززت كتفي وأكملت اللعب مع آينشتاين. ولكن بما أن انتباهي قد شُتت، قضى آينشتاين على كل حجارتي، وهذا ماوتّرني أكثر. يسمونه بآينشتاين ليس لأنه أذكى من الآخرين، بل لأن رأسه أكبر بمرتين. ربما من مرض

الاستسقاء. مؤسف. لو كان ذلك بسبب الدماغ كان يمكن لآينشتاين أن يقوم بأشياء عظيمة. عندما أدركت أنني أخسر تركت اللعبة وسرت خلف بوبكورن إلى غرفته التي تطل على موقف السيارات. لقد كان محقاً: فقد وصل والداي بالفعل.

يجب أن أخبرك يا إلهي أنني وأهلي نسكن بعيداً. في السابق عندما كنت أعيش هناك لم أكن أحس بذلك. بينما الآن بعدما لم أعد أعيش هناك صرت أعتبر أنه بعيد جداً. ولهذا السبب لا يستطيع أهلي زيارتي إلا مرة في الأسبوع، يوم الأحد، عندما لا يعمل كلاهما، وأنا أيضاً.

ـ أرأيت؟ لقد كنتُ محقاً ـ قال بوبكورن ـ كم ستعطيني مقابل أنني نبّهتك؟

ـ لدي شوكولا بالفستق.

ـ ألم يبق لديك فريز تاغادا؟

ـ لا.

ـ موافق على الشوكولا.

بالطبع لم أكن أملك الحق في تزويد بوبكورن بالطعام آخذاً بعين الاعتبار أنه يتعالج من السمنة. ففي سنواته التسع يزن ثمانية وتسعين كيلوغراماً، طوله متر وعشرة سنتيمترات وعرضه متر وعشرة سنتيمترات أيضاً! الملابس

الوحيدة التي يستطيع أن يدخل فيها كله هي بذلة رياضية لرياضة البولو الأميركية. وفوق ذلك هي مخططة وتزوّغ العينين لدرجة أن دوار البحر يبدأ. بصراحة، بما أنني لا أنا ولا أصدقائي نؤمن بأنه سيستطيع أن ينحف، فهو يجوع بشدة لدرجة أننا نشفق عليه، لذلك دائماً نعطيه ما تبقى من طعامنا. فلوح الشوكولا مقارنة مع كتل شحومه يبدو ضئيلاً جداً! قد لا نكون على حق، ولكن الممرضات أيضاً توقفن عن حشوه بالمسهلات.

ذهبت إلى غرفتي لأنتظر والداي. في البداية لم أكن منتبهاً للوقت، لأنه كان علي أن ألتقط أنفاسي، ولكنني أدركت فيما بعد أنهما كانا يستطيعان أن يصلا إلي ألف مرة. وفجأة أدركت أين يمكنهما أن يكونا. خرجت إلى الممر وتأكدت من أن أحداً لا يراني، نزلت الدرج ومشيت في العتمة حتى عيادة الدكتور دوسلدورف.

تماماً كما توقعت! كانا هناك. من خلف الباب كنت أسمع صوتيهما. نزول الدرج أرهقني واستغرقت وقتاً حتى يعود قلبي إلى مكانه. هذا الإبطاء أفسد كل شيء: فقد سمعت ما لا يجب أن أسمعه. كانت أمي تنتحب والدكتور دوسلدورف يكرر: «لقد فعلنا كل ما نستطيع، صدقاني، لقد فعلنا كل شيء»، وكان أبي يرد على هذه الجملة بصوت مخنوق: «أصدقك يا دكتور، أنا لا أشك بذلك».

الصقت أذني بالباب المعدني. لا أعرف ما الذي كان أبرد: المعدن أم أنا.

ثم سأل الدكتور دوسلدورف:

ـ هل تريدان رؤيته؟

ـ لا أظن أنني أقوى على ذلك ـ أجابت أمي.

ـ الأفضل له ألا يرانا في هذه الحالة ـ أضاف أبي.

عندها أدركت أن والديّ جبانان بائسان. والأسوأ من ذلك أنهما يظنانني جباناً أيضاً!

سمعت ضجيج حركة الكراسي في العيادة، فأدركت أنهما سيخرجان الآن، عندها فتحت أول باب وقعت عليه يدي. وهكذا وجدت نفسي في خزانة الحائط حيث يضعون المقشات والمماسح وحيث قضيت ما تبقى من فترة الصباح لأن خزائن الحائط (من المحتمل يا إلهي أنك لست مطّلعاً على الأمر؟) تفتح من الخارج، وليس من الداخل، وكأن هناك من يخشى أن تهربَ المقشات والدلاء ومماسح الأرض ليلاً! وهكذا بقيت هادئاً تماماً محبوساً في الظلام التام لأنني لم أكن أرغب برؤية أحد وأيضاً لأن يديّ وساقيّ لم تطاوعني كثيراً بعد الصدمة التي عشتها، أقصد بعد الذي اضطررت لسماعه. وعند اقتراب منتصف النهار شعرت بحركة نشيطة في الطابق العلوي. كنت أسمع خطوات وركضاً. ثم بدأت تُسمع صيحات من كل مكان:

ـ أوسكار! أوسكار!

أعجبني أن أسمع نداءهم لي ولا أجيب. أردت أن أزعج الكل.

بعدها لا بد أنني نمت قليلاً، ثم سمعت تشحيط حذاء السيدة ندا عاملة التنظيفات. فَتَحت الباب وهنا خفنا كلانا بشكل حقيقي: هي لأنها لم تتوقع رؤيتي هنا، وأنا لأنني نسيت تماماً أنها سوداء هكذا وأنها تستطيع الصراخ بهذه القوة. ثم حدثت فوضى حقيقية: لقد أتوا كلهم، والدكتور دوسلدورف، ورئيسة الممرضات، والممرضات المناوبات والجليسات. وبدل أن يوبخوني ـ كما كنت أتوقع ـ كانوا يتصرفون وكأنهم مذنبون وعندها فهمت أن عليّ استغلال هذا الظرف على الفور.

ـ أريد رؤية السيدة الوردية.

ـ أين اختفيت يا أوسكار؟ هل أنت بخير؟

ـ أريد رؤية السيدة الوردية.

ـ كيف دخلت إلى خزانة الحائط؟ كنت تتبع أحداً؟ هل سمعت شيئاً؟

ـ أريد رؤية السيدة الوردية.

ـ اشرب كأساً من الماء.

ـ لا، أريد السيذة الوردية.

ـ كُل قطعة من...

ـ لا، أريد رؤية السيدة الوردية.

جرف صخري. صخرة ساحلية. بلاطة بيتونية. لن تخترقني بشيء. حتى أنني لم أكن أسمع ما يقولون لي. كنت أريد رؤية ماماي الوردية.

ارتبك الدكتور دوسلدورف كثيراً أمام الزملاء والموظفين، لأنه لا يملك علي أية سلطة. وانتهى الأمر بأن نفد صبره:

ـ ليحضروا هذه السيدة!

عندها وافقت أن أستريح ونمت قليلاً في غرفتي.

عندما استيقظت، كانت الماما الوردية هنا، تبتسم.

ـ أحسنت يا أوسكار، حققت مبتغاك. لقد صَفَعْتَهم صفعة معتبرة. ونتيجة ذلك بدؤوا يحسدونني.

ـ طز.

ـ إنهم أناس جيدون يا أوسكار. جيدون جداً.

ـ لا يهمني.

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد أخبر الدكتور دوسلدورف والديّ بأنني سأموت، فهربا. أنا أكرههما.

وأخبرتها كل شيء بالتفصيل، فما رأيك يا إلهي.

ـ هه ـ قالت الماما الوردية ـ هذا يذكرني بمباراتي في «بيتون» ضد «سارة هوب لا بوم»، المصارعة التي كانت تدهن نفسها بالزيت وتظهر على الحلبة شبه عارية. لقد لقبوها بـ«حنكليس الحلبة»، لأنها تنزلق من اليدين حين يحاول المرء الإمساك بها. كانت تظهر حصرياً في بيتون، حيث تحصل كل سنة على كأس تلك المدينة. إلا أنني أنا أيضاً أردت أن أفوز بكأس بيتون.

ـ وماذا فعلتِ أيتها الماما الوردية؟

ـ عندما ظَهَرَت على الحلبة، رمى أصدقائي عليها الطحين. شكل الطحين مع الزيت قشرة رائعة. بثلاث مناورات وحركتين ثَبَّتُّ «سارة هوب لا بوم» أرضاً. ومنذ ذلك الحين ما عادوا يطلقون عليها اسم «حنكليس الحلبة»، لقد صارت «سمكة بالعجين».

ـ اعذريني يا سيدتي ولكنني لا أرى الرابط.

ـ أما أنا فأراه بشكل جيد. هناك دائماً حل يا أوسكار، ودائماً هناك كيس طحين في مكان ما. عليك أن تكتب لله. فهو أقوى مني.

ـ حتى في المصارعة؟

ـ أجل، حتى في المصارعة. فالله يعرف عمله. حاول ياصغيري. وما الذي أحزنك أكثر شيء؟

ـ أنا أكره والديّ.

ـ إذن استمر في كرهك أشد من السابق.

ـ أنت تقولين لي هذا أيتها الماما الوردية؟

ـ أجل. ليصبح كرهك أشد. وسوف يكون كالعظْمة بالنسبة للكلب. عندما تتوقف عن عضها سترى أنه لم تكن هناك أية فائدة في ذلك. أخبر الله بكل ذلك واطلب منه في رسالتك كي يزورك.

ـ وهل هو قادر على التحرك؟

ـ بطريقته. ليس كثيراً. بل حتى نادراً.

ـ لماذا؟ هل هو أيضاً مريض؟

وهنا، وبناء على تنهيدة الماما الوردية فهمت: لم تكن تريد أن تعترف أنك أنت أيضاً يا إلهي في حالة سيئة.

ـ ألم يخبرك والداك يا أوسكار عن الله يوماً؟

ـ لننسَ أمر والديّ، إنهما سخيفان.

ـ بالطبع. ولكن ألم يحدثاك يوماً عن الله؟

ـ حدثاني مرة. ولكن فقط كي يقولا بأنهما ما عادا يؤمنان به. هما تحديداً يؤمنان ببابا نويل.

ـ أيعقل أنهما سخيفان إلى هذا الحد؟

ـ تخيلي! مرة حين عدت من المدرسة أعلنت أنه يكفيني

سماع الترّهات لأنني أعرف كما يعرف كل أصدقائي أن بابا نويل غير موجود، فبدوا وكأنهما سقطا من القمر. بما أنني كنت أجن من احتمال أن أظهر بمظهر الغبي أمام رفاقي في الصف، أقسما أنه لم يكن في نيتهما خداعي وأنهما هما ذاتهما كانا يؤمنان بصدق بوجود بابا نويل. والآن هما حزينان كثيراً ـ هذا تماماً ما قالاه ـ حزينان كثيراً لمعرفتهما أنه غير موجود في الواقع! أقول لك أيتها الماما الوردية أنهما عجوزان سخيفان.

ـ إذن فهما لا يؤمنان بالله؟

ـ لا.

ـ ألم يثر ذلك فضولك بطريقة ما؟

ـ إذا بدأت أهتم بما يفكر به الأغبياء فلن يبقى لدي وقت لأفكار الناس الأذكياء.

ـ أنت محق. ولكن إذا انطلقنا من رأيك بأن والديك سخيفان...

ـ سخيفان حقيقيان يا سيدتي!

ـ إذن، إذا كانا على خطأ ولا يؤمنان، فلم لا تؤمن أنت وتطلب منه زيارة؟

ـ حسناً. ألم تخبريني بأنه مريض؟

ـ لا. المسألة تكمن في أن لديه طريقته الخاصة في القيام بالزيارات. سوف يأتيك في أفكارك. وفي وعيك.

ـ أعجبني هذا. رائع بالفعل.

وأضافت الماما الوردية:

ـ وسترى: فزيارته ستأتي عليك بفائدة كبيرة.

ـ أوكي، سوف أحدثه. فحتى الآن الزيارات التي تأتي علي بفائدة كبيرة هي زياراتك.

ابتسمت الماما الوردية وانحنت علي بخجل تقريباً لتقبلني على خدي. ولكنها لم تكن تجرؤ على فعل ذلك وتوسلتني بنظرتها كي أسمح لها.

ـ هيا، لابأس. قَبّلي. لن أخبر أحداً. ولن أفسد سمعتك كمصارعة سابقة.

لمست شفتاها خدي، فشعرت بمتعة ودفء ودغدغة، وشممت رائحة البودرة والصابون.

ـ متى ستأتين مرة أخرى؟

ـ يحق لي المجيء مرتين فقط في الأسبوع.

ـ هكذا لا يجوز أيتها الماما الوردية! لا أنوي الانتظار ثلاثة أيام كاملة.

ـ هكذا هي القوانين هنا.

- ومن الذي يضع القوانين؟

- الدكتور دوسلدورف.

- عندما يراني الدكتور دوسلدورف يبدو مستعداً ليعملها تحته من الخوف. اذهبي واطلبي منه الإذن ياسيدتي. أنا لا أمزح.

نظرتْ إلي مترددة.

- أنا لا أمزح. إذا لم تأتِ لزيارتي كل يوم فلن أكتب لله.

- سأحاول.

ذهبت الماما الوردية، فبدأت أبكي. ففي السابق لم أكن أدرك كم أنا بحاجة للمساعدة. ولم أكن أفهم أنني مريض جداً. حين فكرت بأنني لن أرى الماما الوردية، بدأت أدرك كل هذا، وانهمرت الدموع وحدها، حارقة خدّي. من حسن الحظ أنني استطعت تمالك نفسي قبل عودتها.

- سوّي كل شيء: لقد حصلت على الموافقة. استطيع القدوم إليك كل يوم خلال اثني عشر يوماً.

- إلي وفقط إلي؟

- إليك وفقط إليك يا أوسكار. اثنا عشر يوماً.

وهنا لا أفهم ما الذي حصل لي، ولكن الدموع انهمرت من جديد، ولم استطع أن أكبت نُواحي. رغم أنني أعرف

جيداً أن الصبيان يجب ألا يبكوا. وخاصة أنا، بجمجمتي الصلعاء التي بسببها لا أشبه الصبي ولا البنت. قد أشبه سكان المريخ. ولكنني لم استطع أن أفعل شيئاً: فلم أستطع التوقف.

ـ اثنا عشر يوماً؟ إذن فالأمور سيئة إلى هذا الحد أيتها الماما الوردية؟

هي أيضاً كانت على وشك البكاء. وبالكاد تماسكت. المصارعة السابقة كانت تمنع الفتاة السابقة من أن تأخذ حريتها. كان المنظر مثيراً للفضول فتلَهّيت قليلاً.

ـ ما هو تاريخ اليوم يا أوسكار؟

ـ أوهوه! ألا ترين التقويم؟ اليوم هو الـ 19 من كانون الأول.

ـ في موطني يا أوسكار توجد أسطورة يمكن بوساطتها ومن خلال آخر اثني عشر يوماً من الشهر أن تحدد الطقس لاثني عشر شهراً قادماً. ولكي تمتلك تصوراً عن كل شهر، يكفي أن تراقب واحداً من الاثني عشر يوماً. الـ 19 من كانون الأول يمثل شهر كانون الثاني، والـ 20 من الشهر هو شباط، وهكذا، حتى الـ 31 من كانون الأول الذي يمثل كانون الأول القادم.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ إنها أسطورة. أسطورة عن نبوءة اثني عشر يوماً. أرغب أن نلعب أنا وأنت هذه اللعبة. بالأحرى أنت. فبدءاً من هذا اليوم سوف تراقب كل يوم، متخيلاً أن كل يوم يمر بعشر سنين.

ـ عشر سنين؟

ـ أجل، يوم واحد يعادل عشر سنين.

ـ إذن فبعد اثني عشر يوماً سيصبح عمري 130 عاماً!

ـ أجل. أتتخيل؟

قبلتني الماما الوردية ـ يبدو أن هذه الشغلة قد أعجبتها، أشعر بذلك ـ ثم ذهبَتْ.

وهكذا يا إلهي، لقد ولدت صباح اليوم ولكنني لم أدرك ذلك على الفور. بدأ الأمر يتوضح عند منتصف النهار: ففي عمر السنوات الخمس ازداد الإدراك، ولكن الأخبار لم تكن سارة. اليوم مساء سيصبح عمري عشر سنوات، عُمر معقول. سأستغل ذلك لأطلب شيئاً واحداً: عندما يصبح عندك أخبار لي، كما حصل في منتصف نهار اليوم، فأخبرني بها بطريقة أكثر ليونة، وليس بفجاجة، شكراً.

إلى الغد، قبلاتي،

أوسكار.

ملاحظة: أريد أن أطلب منك شيئاً آخر بعد. أعرف أنه

يحق لي أمنية واحدة فقط في اليوم، ولكن أمنيتي السابقة لم تكن بالأحرى أمنية، بل مجرد نصيحة.

أنا أقبل بزيارة قصيرة. فكرية. أعتقد أن ذلك رائع. أرغب كثيراً أن تزورني. ساعات دوامي من الثامنة صباحاً وحتى التاسعة مساء. باقي الوقت أنام. أحياناً يصدف أن أغفو نهاراً بسبب العلاج. ولكن حتى لو كنتُ نائماً لا تخشى أن توقظني. فمن السخف أن يفوت المرء فرصة اللقاء بسبب دقيقة من عدم التطابق. هل أنت موافق؟

إلهي العزيز...

اليوم بلغت سن الفتوة، والأمور ليست سلسة. يا له من أمر! لدي صعوبات كبيرة ـ مع أصدقائي وأهلي ـ وكل ذلك بسبب الفتيات. أنا سعيد لأنه المساء، حين يصبح عمري عشرين، استطيع أن أتنفس الصعداء، لأن الأسوأ يكون قد مر. شكراً لك على النضوج الجنسي! ولكن لننتهِ من هذه المسألة.

قبل كل شيء أريد أن ألفت انتباهك يا إلهي إلى أنك لم تأت. اليوم لم أنم تقريباً بسبب هذه المشاكل المتعلقة بالنضوج الجنسي، وأيضاً كي لا تفوتني زيارتك. ثم، أكرر مرة أخرى: إذا كنتُ غافياً أيقظني.

عندما استيقظت كانت الماما الوردية قد وصلت. أثناء الإفطار أخبرتني عن معركتها مع «الصدر الملوكي» وهي مصارعة بلجيكية كانت تأكل ثلاث كيلوغرامات من اللحم النيء في اليوم، وتشرب معه برميلاً كاملاً من البيرة. ويبدو

أن كل قوة «الصدر الملوكي» كانت تكمن في أنفاسها النتنة، الناتجة عن تخمر اللحم النيء بسبب البيرة، فما كان عليها إلا أن تنفخ حتى يذهب خصمها بإرادته ليجلس في الصالة. ولكي تتغلب عليها اضطرت الماما الوردية أن تضع تكتيكاً جديداً: أن تعتمر خوذة وقناعاً مشبعاً بعطر الخزامى وتسمي نفسها بـ «الجلادة من كاربانتر». وكما تقول دائماً، المصارعة لا تتطلب فقط عضلات نامية بل ومخاً جيداً أيضاً.

ـ من يعجبك يا أوسكار؟

ـ هنا في المشفى؟

ـ نعم.

ـ «شحم الخنزير المدخن»، آينشتاين، بوبكورن.

ـ ومن البنات؟

شغلني هذا السؤال. لم أكن أرغب بالإجابة عليه. ولكن الماما الوردية كانت تنتظر الرد، ولا ينبغي أن يتساخف المرء لفترة طويلة مع مصارعة ذات تصنيف عالمي.

ـ «بيغي بلو».

«بيغي بلو» هي فتاة سماوية اللون. وهي تعيش في الغرفة ما قبل الأخيرة من الممر. إنها تبتسم بطريقة لطيفة، ولكنها لا تقول شيئاً تقريباً. وكأن الجنية قد دخلت المشفى

طائرة للحظات. إن مرضها معقد نوعاً ما، مشكلة مع الدم، الذي لا يصل إلى الرئتين، ونتيجة ذلك يكتسب الجلد لوناً سماوياً. إنها تنتظر العملية كي يعود جلدها وردياً كما كان. أما برأيي فهي بلونها السماوي جميلة جداً، هذه البيغي بلو. فكأن حولها غيمة من النور والسكينة. عندما يقترب المرء منها يشعر وكأنه يدخل إلى الكنيسة.

ـ هل أخبرتها بذلك؟

ـ لست غبياً لدرجة أن أقول فجأة ومن دون مبرر: «أنت تعجبينني يا بيغي بلو».

ـ ولم لا؟

ـ أنا حتى غير واثق إن كانت تعرف بوجودي.

ـ هذا صحيح أيضاً.

ـ هل شاهدتِ كيف هو رأسي؟ إن كانت تحب سكان الفضاء فالمسألة مختلفة، ولكنني لا أظن ذلك.

ـ بالنسبة لي تبدو جميلاً جداً يا أوسكار.

وبهذا فرملت الماما الوردية حديثنا قليلاً. لذيذ أن تسمع أشياء كهذه، فهي ترضي الغرور، ولكن لا تعرف بماذا يمكن أن تجيب على ذلك.

ـ أنا لا أنوي إغراءها بشكلي الخارجي.

ـ وبماذا تشعر تجاهها؟

ـ أرغب أن أحميها من الأشباح.

ـ ماذا؟ هل توجد أشباح هنا؟

ـ أجل. كل ليلة. لا أعرف لماذا ولكنها توقظنا. تقرص، وهذا مؤلم. إنها لا تُرى، وهذا مخيف. ثم يصعب أن ننام من جديد.

ـ وهل تزورك هذه الأشباح كثيراً؟

ـ لا، فأنا أنام بعمق. ولكنني أسمع كيف تصرخ بيغي بلو في الليل. أرغب بحمايتها.

ـ أخبرها بذلك.

ـ على الأرجح لا أظن أنني سأتمكن من حمايتها، لأنه لا يفترض أن نخرج من غرفنا في الليل. هكذا هي القوانين هنا.

ـ وهل تعرف الأشباح القوانين هنا؟ لا. أكيد لا. أحتال إذن: إذا سمِعَتك وأنت تقول لبيغي بلو بأنك ستحميها منهم فلن تجرؤ على القدوم إلى هنا مجدداً.

ـ ولكنني.. ولكنني..

ـ كم عمرك يا أوسكار؟

ـ لم أعد أعرف. كم الساعة؟

- الساعة العاشرة. قريباً ستصبح في الخامسة عشرة. ألا تعتقد أن الوقت قد حان لتصبح أكثر جرأة في عواطفك؟

في العاشرة والنصف اتخذت قراري، تجرّأت ومشيت حتى الغرفة التي كان بابها مفتوحاً.

- هاي بيغي. أنا أوسكار.

كانت تستلقي في سريرها وتشبه بياض الثلج في انتظار الأمير، في حين يعتبرها كل هؤلاء الأقزام الكريهون ميتة، إنها تشبه بياض الثلج، كما في صور الثلج، حين يبدو سماوي اللون وليس أبيض. استدارت نحوي فسألت نفسي، هل تعتبرني الأمير أم واحداً من الأقزام. أنا أميل إلى اعتبار نفسي قزماً بسبب جمجمتي الصلعاء، ولكنها لم تقل شيئاً، وهذا بالضبط ما كان رائعاً في بيغي بلو: فهي دائماً لا تقول شيئاً، وبهذا يحافظ كل شيء على سرّيته.

- أتيت لأقول لك أنه بدءاً من مساء اليوم، وفي جميع المساءات القادمة، أنا، إن رغِبتِ، سأقف حارساً عند بابك كي أحميك من الأشباح.

نَظَرَتْ إلي فرَقّتْ رموشها. راودني انطباع كما في التصوير البطيء، الهواء أصبح أكثر خفة، والصمت أكثر سكوتاً، وبأنني أتحرك في الماء، وكل شيء يتغير حين

أقترب من سريرها المضاء بالنور الصادر من مكان مجهول.

- انتظر، انتظر يا أصلع: أنا من سيحمي بيغي بلو!

ظهر بوبكورن في فتحة الباب، بل بالأحرى ملأ بجسده فتحة الباب. ارتجَفتُ. مؤكد أن حمايته لها ستكون أكثر أماناً، فلن يستطيع أي شبح أن يجد شقّاً يمر منه عبر الباب بعد الآن. غمز بوبكورن بيغي.

- هيه بيغي! نحن صديقان ألسنا كذلك؟

كانت بيغي تنظر إلى السقف. واعتبر بوبكورن ذلك علامة الموافقة ودفعني خارجِ الغرفة.

- إن كنتَ تريد فتاة فخذ ساندرينا. فالصيد ممنوع هنا.

- بأي حق؟

- بحق الأولوية: أنا أتيت أولاً. وإن لم تكن راضياً فيمكننا أن نسوّيَ المسألة بالقتال.

- بالنتيجة أنا راض جداً.

تعبتُ قليلاً وذهبتُ لأجلس في قاعة الألعاب. وتبين أن ساندرينا كانت هناك. لديها لوكيميا كما لدي، ولكن يبدو أن العلاج كان ينفعها. لقد لقبوها بالصينيّة بسبب باروكة

سوداء ذات شعر مستقيم لامع وغرّة. إنها تنظر إلي وتنفخ بالوناً من العلكة.

ـ يمكنك أن تقبّلني إن أردت.

ـ لماذا؟ ألا تكفيك العلكة؟

ـ غبي، مؤكد أنك حتى لا تعرف كيف. أراهن بأنك لم تجرب مرة.

ـ لقد أضحكتِني. في عمر الخامسة عشرة ولم أجرب مرة! مخطئة، أؤكد لك!

ـ عمرك خمسة عشر عاماً؟

استَغرَبَتْ.

تأكدت من الساعة.

ـ أجل، لقد أتممتُها.

ـ كنت أحلم دائماً أن يقبّلني صبي كبير في الخامسة عشرة.

ـ بالطبع هذا مُغرٍ.

أجَبت.

وهنا صَنَعَت بوجهها تعابيرَ لا يمكن تصوّرها مادّةً شفتيها للأمام (أتتخيل مِمَصّاً تفلطح على الزجاج؟) ففهمت أنها تنتظر القبلة. وعندما استدَرت رأيت أن جميع

أصدقائي يراقبوننا. انقطعت جميع سبل التراجع. يجب أن أكون رجلاً. مرت ساعة. اقتربتُ وقبّلتُها. تعلّقَت بي بيديها، لا استطيع الفرار، فمي مبلل تماماً، وفجأة، ومن دون أي سابق إنذار ألصقَت لي علكتها. ومن هول المفاجأة ابتلَعتُها كلها. أنا غاضب. وتماماً في هذه اللحظة هناك من ربت على ظهري. المصائب لا تأتي فرادى: إنهما والداي. إنه الأحد وقد نسيت ذلك تماماً.

ـ هل ستعرفنا بصديقتك يا أوسكار؟

ـ إنها ليست صديقتي.

ـ ولكن هل تستطيع أن تقدّمها لنا؟

ـ ساندرينا. أهلي. ساندرينا.

ـ سعيدة جداً بالتعرف إليكما.

قالت الصينية بصوت معسول.

كان يمكنني أن أقتلها.

ـ هل تريد أن ترافقنا ساندرينا إلى غرفتك؟

ـ لا. ساندرينا ستبقى هنا.

عندما عدت إلى غرفتي فهمت أنني متعب فغفوت قليلاً. في جميع الأحوال لم أكن راغباً في التحدث إليهما. وعندما استيقظت بدآ بإهدائي الهدايا بالطبع. منذ أن صرتُ في المشفى بدأ أهلي يستصعبان الحديث معي، لذلك يحضران

لي الهدايا، فتذهب فترة ما بعد الغداء الميتة في قراءة قواعد اللعبة وطرق الاستخدام. أبي لا يتعب من قراءة جميع أنواع الشروحات: ولا يمكن تكدير مزاجه حتى ولو كانت مكتوبة بالتركية أو باليابانية، فهو عندها يستعين بالتصاميم والمخططات. إنه بطل العالم في إفساد أيام الأحد. اليوم أحضر مسجلة. وهنا، حتى ولو كنت أرغب بذلك، لم استطع أن أعترض بشيء.

ـ ألم تأتيا أمس؟

ـ أمس؟ كيف خطر لك ذلك؟ نستطيع القدوم الأحد فقط. لماذا تسأل؟

ـ هناك من شاهد سيارتكما في الموقف.

ـ العالم ليس حصراً على سيارة جيب حمراء واحدة. هناك كثير من السيارات المتشابهة.

ـ بالطبع. كأنني لا أعرفكما. يا للأسف.

وهنا بدأتُ بهما. أخذت المسجلة وأمامهما ولمرتين على التوالي استمعت لأسطوانة «كسارة البندق» كلها. ساعتين لم يستطيعا خلالها التلفظ بكلمة. إنهما يستحقان ذلك.

ـ أتعجبك؟

ـ وكيف لا؟ إنها تُشعرني بالنعاس.

فهما أن عليهما الذهاب. ومن الواضح أنه لم يكن مرغوباً بهما في المكان. وجدا صعوبة في اتخاذ القرار. كنت أشعر أنهما يريدان أن يقولا شيئاً ولكنهما لايستطيعان. أعجبتني مراقبتهما وهما يتعذبان، وهما أيضاً.

ثم اندفعت أمي نحوي وشدّتني إليها بقوة، بقوة زائدة وقالت بصوت جنوني:

- أوسكار، صغيري، أنا أحبك، أنا أحبك كثيراً جداً.

كنت أريد أن أفلَت، ولكنني قررت في آخر لحظة ألا أقاوم، تذكرت الأوقات الخوالي، حين كانت اللطافة بسيطة وحنونة، وهي كانت تقول إنها تحبني دون هذا الحزن في صوتها. بعد هذا كان علي أن أنام قليلاً.

الماما الوردية بطلة في الإيقاظ. إنها دائماً تقف في خط الانتظار تماماً في تلك اللحظة التي أفتح فيها عيني. ودائماً تبتسم.

- إذن، ما بهما والداك؟

- لا شيء، كالعادة. بالمناسبة لقد أهدياني «كسارة البندق».

- «كسارة البندق»؟ هذا مثير للفضول. كان لدي صديقة لقّبوها هكذا. سوبر بطلة. كانت تكسر رقاب

خصومها حاصرة إياهم بين فخذيها. وبيغي بلو؟ هل كنت عندها؟

ـ لا داعي للحديث عن هذا. إنها مخطوبة لبوبكورن.

ـ هي نفسها قالت لك ذلك؟

ـ لا. هو أخبرني.

ـ كذب.

ـ لا أظن. متأكد أنه يعجبها أكثر مني. إنه أقوى ويوحي بالثقة.

ـ أقول لك أن هذا كذب! كنت أظهر كفأرة على الحلبة ولكنني كنت أفوز على مصارعات تشبهن الحيتان أو أفراس النهر. لنأخذ كمثال «بلوم بودينغ» وهي أيرلندية تزن 150 كيلوغراماً على الريق وفي السروال التحتي وقبل أن تدخل في سجل غينيس. كان ساعداها بعرض حوضي، وعُضُداها مثل فخذي خنزير مقدد، وساقاها لا يمكن الإحاطة بهما باليدين. من دون خصر، لا يمكن الإمساك بها من شيء. لا يمكن هزيمتها.

ـ وكيف استطعتِ ذلك؟

ـ إن لم يكن هناك ما يمكن الإمساك به فمعنى ذلك أنه مستدير ويتدحرج. أجبرتها على الركض كي تفقد قوتها ثم ثَبَّتُّ كتفيها. «بلوم بودينغ»! لَزِمَ ونش كي يوقفوها على

قدميها. لديك يا صغيري أوسكار عظام خفيفة والقليل من اللحم، الواقع هو الواقع. ولكن لكي تُعجِب أحداً لا يكفي اللحم والعظام، بل تلزمك مزايا الروح وهي كثيرة لديك.

ـ عندي أنا؟

ـ اذهب إلى بيغي بلو وأخبرها بما لديك في قلبك.

ـ لقد تعبت قليلاً.

ـ تعبت؟ كم عمرك الآن؟ ثمانية عشر عاماً؟ في الثامنة عشرة لا يتعبون.

ماماي الوردية تعرف التكلم بطريقة تجبرك على الإصابة بعدوى الطاقة.

حل الليل، أصبحت الأصوات في الظلمة أكثر دقة، وكان «اللينوليوم» في الممر يعكس ضوء القمر. دخلت إلى بيغي ومددت لها يدي بمسجلتي.

ـ خذي، استمعي إلى «فالس ندف الثلج»، إنه جميل جداً ويذكرني بك.

استمعت بيغي إلى «فالس ندف الثلج». ابتسمت وكأن الفالس كان صديقها القديم ويهمس في أذنها بشيء مثير.

أعادت إلي المسجلة وقالت:

ـ جميل جداً.

كانت هذه كلماتها الأولى. ما أحلاها بالنسبة لأولى الكلمات.

- بيغي بلو، كنت أريد أن أقول لك: لا أريد أن يجروا لك عملية. أنت جميلة جداً كما أنت. اللون السماوي يليق بك.

كنت أرى جيداً أن كلماتي تعجبها. لم أقُلها من أجل هذا، ولكن كان من الواضح أنها تعجبها.

- لا أريد أحداً غيرك يا أوسكار كي يحميني من الأشباح.

- اعتمدي علي يا بيغي.

كنت فخوراً جداً. ففي النهاية أحرزت النصر.

- قبّلني.

عندهن، عند البنات، القبلة هي «أفضل فقرة»، لايستطعن الاستغناء عنها. ولكن على خلاف الصينية لم تكن بيغي مبتذلة هكذا، فقد عرضت لي خدها وبصراحة، بسبب هذه القبلة، أحسست أن حرارتي ترتفع.

- تصبحين على خير يا بيغي.

- تصبح على خير يا أوسكار.

هكذا كان يومي يا إلهي. فهمت لماذا يسمّون سن المراهقة بالمرحلة الانتقالية. فترة صعبة ولكن بعد العشرين يتحسن الوضع.

وهكذا أرسل إليك طلبي لهذا اليوم: أرغب بأن نتزوج أنا وبيغي. لست واثقاً إن كان الزواج يتعلق بالروحانيات، أي يدخل ضمن اختصاصك. هل تلبي أمنيات من هذا النوع كما تفعل وكالات الزواج؟ إن لم يكن هذا من صلاحياتك فأعلمني بذلك سريعاً، كي أستطيع اللجوء إلى خطّابة. لاأرغب استعجالك ولكنني مضطر لأذكرك أن وقتي محدود جداً. إذن: زواج أوسكار وبيغي بلو. نعم أم لا. فكر إن كنت تستطيع فعل ذلك، فأنا أرغب بهذا كثيراً.

إلى الغد، قبلاتي،

أوسكار.

ملاحظة: بحَقّ، ما هو عنوانك؟

إلهي العزيز...

لقد حصل، فقد تزوجنا. اليوم هو الـ 21 من كانون الأول، أصبحتُ في العشرية الثالثة وأنا متزوج. فيما يتعلق بالأولاد فقد أجّلنا هذه المسألة حالياً أنا وبيغي. اعتقد أنها ليست مستعدة بعد.

حدث كل شيء الليلة الماضية. في الواحدة ليلاً سمعت بيغي بلو تئن فقفزت في سريري. إنها الأشباح! إنهم يعذبون بيغي بلو التي وعدتُ أن أحميها. وستظن الآن أنني مجرد ثرثار وستمتنع عن التحدث إلي ولها الحق في ذلك. وقفت واتجهت باتجاه الأنين. عندما وصلت إلى غرفة بيغي رأيتها جالسة في السرير. أذهلها حضوري. مؤكد أن شكلي كان مذهولاً أيضاً: كانت تجلس مقابلي، تنظر إلي، فمها كان مغلقاً ولكنني بقيت أسمع صوت الصراخ.

عندها مشيت نحو الباب التالي وأدركت أن «شحم الخنزير المدخن» هو من يئن. كان يتلوّى في سريره بسبب

الحروق. للحظة شعرت بالخجل: فقد تذكرت مجدداً اليوم الذي أضرمت فيه النار بالمنزل، والقطة والكلب وحتى أنني شويت قليلاً الأسماك الذهبية، بالأحرى الأغلب أنها سُلِقَت. فكرتُ بما عانَتْهُ وقلت لنفسي بالمحصلة كان من الأفضل ترك كل شيء كما هو، فهذا أفضل من العذاب المستمر بسبب الذكريات والحروق كما يتعذب الآن «شحم الخنزير المدخن» رغم المراهم وزراعة الجلد. تلوّى «شحم الخنزير المدخن» وتوقف عن الأنين. عدتُ إلى بيغي بلو.

ـ إذن لست أنت من كان يئن يا بيغي؟ كنت أعتقد أنك أنت من يصرخ في الليل.

ـ وأنا اعتقدت أنه أنت.

لم نعد بعدها إلى ما حصل ولا إلى ما كان يقول كل واحد منا لنفسه. تبين أننا نفكر ببعضنا البعض منذ زمن. أصبح لون بيغي بلو أكثر سماوية وكان هذا يعني أنها تشعر بالخجل.

ـ ما الذي تنوي فعله الآن يا أوسكار؟

ـ وأنت يا بيغي؟

لا يعقل كم كان بيننا أشياء مشتركة، ذات الأفكار وذات التساؤلات.

ـ هل تريد أن تنام معي؟

البنات مخلوقات غير معقولة. فلكي ألفظ عبارة كهذه كنت سأحتاج لساعات، أسابيع، أشهر وأنا أدوّرها في رأسي. وهي نطقت بها بهذه العفوية وهذه البساطة.

ـ أوكي.

استلقيت قربها. كان المكان ضيقاً ولكننا قضينا ليلة رائعة. كانت تفوح من بيغي رائحة الجوز وكان جلدها رقيقاً جداً ـ مثل الجلد على سطح يدي ـ ولكنه لديها في كل مكان. نمنا طويلاً، ورأينا أحلاماً، التصقنا ببعضنا البعض، وحكى كل واحد منا حياته كلها.

صحيح أنه في الصباح حين اكتشفتنا المدام غوميت ـ كبيرة الجليسات ـ معاً، حصلت مسرحية بل أوبرا حقيقية. فقد بدأت بالصراخ، والجليسة الليلية بدأت الصراخ أيضاً، في البداية كانتا تصرخان على بعضهما البعض، ثم على بيغي، ثم علي، تصفقان الأبواب، وتدعيان الآخرين ليشهدوا، ويسموننا بالـ «مساكين»، رغم أننا في الواقع كنا سعداء، وفقط حضور الماما الوردية هو ما وضع الحد لحفلة القطط هذه.

ـ ألم يحن الوقت لتتركوا الأولاد بسلام؟ ما هو الأهم بالنسبة لكم؟ القوانين أم المرضى؟ طز بقوانينكم. يمكنكم أن تمسحوا أقفيتكم بها. والآن سكوت. يمكنكم أن تنتفوا شعوركم في مكانٍ آخر فهذا ليس مكاناً للفضائح.

وكالعادة ـ مع الماما الوردية ـ لم يكن هناك أي حديث عن الاعتراضات. قادتني إلى غرفتي ونمت قليلاً. وعندما استيقظت استطعنا الحديث قليلاً.

ـ إذن فالأمور جيدة بينك وبين بيغي يا أوسكار؟

ـ سوبر أيتها الماما الوردية. أنا سعيد تماماً. لقد تزوجنا هذه الليلة.

ـ تزوجتما؟

ـ أجل. وقد فعلنا كل ما يفعله الرجل والمرأة حين يكونان متزوجين.

ـ حقاً؟

ـ من تعتبرينني؟ أنا ـ بالمناسبة كم الساعة الآن؟ ـ أصبحت في العشرية الثالثة وأعيش الآن الحياة التي تتناسب مع ذلك، صحيح؟

ـ بالتأكيد.

ـ وتعرفين؟ أشياء كثيرة من تلك التي كنت أقرفها في صباي كالقبلات واللطافة صارت تعجبني الآن. غريب كم نتغير.

ـ أنا سعيدة من أجلك يا أوسكار. أنت تكبر بشكل جيد.

ـ هناك شيء واحد لم ينجح حتى الآن وهو القبلة حين

يتلامس اللسانان. بيغي بلو تخاف أن ينتج أطفال عن ذلك. وأنت ما رأيك؟

- اعتقد أنها على حق.

- اخبريني الحقيقة؟ إذا قبلْتِ على الفم هل ينتج عن ذلك أطفال؟ إذن هل سيصير لدي أطفال أنا والصينية؟

- اهدأ يا أوسكار فالفرص في ذلك ليست بكثيرة. بالأحرى قليلة.

كان شكل الماما الوردية واثقاً فهدأتُ قليلاً لأنه يجب أن أقول لك يا إلهي، لك ولك فقط أنه مرة وربما اثنتين وربما أكثر من مرة تلامست ألسنتنا أنا وبيغي بلو. نمتُ قليلاً. تناولنا الغداء سوياً، أنا والماما الوردية، فأصبحتُ أحسن.

- لا يعقل كم تعبتُ هذا الصباح.

- هذا طبيعي. فبين العشرين والخامسة والعشرين لا تنام الليل، ودائماً تحتفل بشيء ما، تعيش حياة حافلة، ولا توفر قواك. لذلك تضطر لدفع الثمن. ما رأيك أن نقابل الله؟

- وأخيراً! هل حصلتِ على عنوانه؟

- أعتقد أننا سنعثر عليه في الكنيسة.

ألبستني الماما الوردية وكأننا ذاهبان إلى القطب الشمالي، حملتني بين ذراعيها وأوصلتني إلى الكنيسة التي

تقع في عمق حديقة المشفى، فوق المروج المتجمدة. بالمحصلة ليس هناك ضرورة لأشرح لك موقعها لأنك أنت نفسك تعرف أين يقع بيتك. صُدِمت عندما رأيت تمثالك، أقصد الوضع الذي أنت فيه نحيل وعار تقريباً على صليبك، الجراح في كل مكان ودم تحت الإكليل ذي الشوك، حتى أن رأسك ما عاد يحمل نفسه فانحنى نحو الكتف. وهنا فكرت في نفسي، فثار كل شيء فيّ، لو كنت إلهاً مثلك ما كنت لأسمح أن يفعلوا بي هذا.

- أيتها الماما الوردية، أصدقيني القول، أنت، المصارعة السابقة والبطلة العظيمة، لا يمكنك أنت أن تثقي بهذا!

- ولم لا يا أوسكار؟ هل كنت ستثق بالإله أكثر إذا رأيت بطل كمال أجسام ذا جسد مُعتنى به، وعضلات منفوخة، وجلد مُزَيّت وقصّة شعر قصيرة ومايوه احتفالي؟

- ولكن...

- فكر يا أوسكار. إلى من تشعر بنفسك أقرب؟ إلى الإله الذي لم يجرب شيئاً أم إلى الإله الذي يعاني؟

- بالطبع إلى ذاك الذي يعاني. ولكنني لو كنت هو، لو كنت الإله وأمتلك قدراته لتجنبت المعاناة.

- لا يمكن لأحد أن يتجنب المعاناة. لا الإله ولا أنت. ولا والداك ولا أنا.

ـ حسناً. ليكن هكذا. ولكن لِمَ يجب أن نعاني؟

ـ هكذا تماماً. هناك أنواع مختلفة من المعاناة. تمعّن بوجهه جيداً. انظر بإمعان. هل تلاحظ أنه يعاني؟

ـ لا. هذا غريب. وكأنه لا يتألم.

ـ أرأيت؟ يجب أن تميز بين المعاناة الجسدية والمعاناة المعنوية. وإن كنا نخضع للمعاناة الجسدية فالمعاناة المعنوية نختارها بأنفسنا.

ـ لا أفهم.

ـ إذا كانوا يدقّون في قدميك أو كفيك المسامير لن تشعر بشيء سوى الألم. وأنت تشعر به. ولكن حين تفكر بالموت فليس من الضروري أن تشعر بالألم. أنت لا تعرف ما معنى هذا. إذن فكل شيء متعلق بك فقط.

ـ هل تعرفين أناساً كانت فكرة الموت ستفرحهم؟

ـ أجل. أعرف أناساً كهؤلاء. أمي كانت هكذا. وعلى سرير موتها كانت تبتسم من المتعة، كانت تفتقد الصبر، متلهفة لتعرف ما الذي يجب أن يحدث.

لم أكن أرغب بالاعتراض لأنني شعرت بالفضول لمعرفة التتمة، فسكتت لبعض الوقت مفكراً بما قالته لي.

ـ إلا أن معظم الناس غير فضوليين. إنهم يتمسكون بما يملكون كالقملة بأذن صاحبها الحليق على الصفر.

لنأخذ كمثال «بلوم بودينغ»، منافستي الايرلندية، التي تزن 150 كيلوغراماً على الريق. كانت دائماً تقول لي هكذا: «أنا آسفة، ولكنني لن أموت، لست موافقة على الموت، ولم أتفق عليه». كانت مخطئة. فلا أحد اتفق معها على الحياة الأبدية! ولكنها كانت تؤمن بها بإصرار، وتتمرد، وتطرد فكرة الفناء، تستعر غضباً، وتعاني الاكتئاب، نحفت، تركت المهنة، بدأت تشبه هيكل سمكة مأكولة، وفعلياً تناثرت إلى أجزاء. أرأيت، لقد تبين أنها أيضاً فانية، كما كل البشر، وفقط تفكيرها بالموت أفسد حياتها.

- «بلوم بودينغ» كانت غبية أيتها الماما الوردية.

- غبية جداً. ولكن هذا النموذج موجود بكثرة.

وهنا، أومأتُ برأسي مرة أخرى، لأنني كنت موافقاً تماماً.

- الناس يخافون من الموت لأنهم يخافون المجهول. ولكن ما معنى المجهول؟ اقترح عليك يا أوسكار أن تستبدل الخوف بالثقة. تمعن بوجه الإله على الصليب: إنه يختبر معاناة جسدية وليس معنوية، لأنه يؤمن. وفوراً لاتعود المسامير مخيفة هكذا. هذه هي مزايا الإيمان. أردت أن أعرضها لك.

- أوكي يا سيدتي، عندما أشعر بالخوف سأحاول أن أجبر نفسي على الإيمان.

قبّلتني. وبالمحصلة لم يكن الأمر سيئاً في الكنيسة الفارغة معك يا إلهي: فقد كانت هيئتك توحي بالسكينة. بعد أن عدتُ نمت طويلاً. في الفترة الأخيرة أنعس كثيراً. وكأنها حاجة ملحة. عندما استيقظت قلت للماما الوردية:

ـ في الواقع أنا لا أخاف المجهول. أخشى فقط أن أفقد ما عرفتُه.

ـ وأنا مثلك تماماً يا أوسكار. ما رأيك أن ندعو بيغي بلو لتتناول كأساً من الشاي؟

شربت بيغي بلو الشاي معنا وقد اتَّفَقَت مع الماما الوردية بشكل جيد، وضحكنا كثيراً عندما حدثتنا الماما الوردية عن قتالها مع الأخوات «جيكليت»، التوائم الثلاثية اللواتي حاولن الادعاء بأنهن شخص واحد. فبعد كل جولة تغادر إحدى الأخوات الحلبة بعد أن تنهك الخصم وتَشبَع من القفز بحجة قضاء حاجة وتختبئ في الحمام، فتأتي الأخت الأخرى المليئة بالطاقة والانتعاش، وفي حالة جسدية ممتازة لاستكمال القتال. ومن ثم تأتي الثالثة. كان الجميع يعتبرون أنه لا توجد إلا «جيكليت» واحدة، وهي نطّاطة لا تتعب. كشفت الماما الوردية السر وحبست الأختين في الحمام بعد أن رمت المفتاح من النافذة وأهلَكَت الأخت الباقية. هذه المصارعة رياضة ماكرة. ثم ذهبت الماما الوردية.

كانت الجليسات يراقبننا أنا وبيغي وكأننا قنبلتان على وشك الانفجار. اللعنة! أنا الآن في الثلاثين. أَقسَمَت بيغي بلو أنها ستأتي إلي بنفسها هذه الليلة ما أن تستطيع وكجواب أقسمتُ أنني سأستغني عن اللسان هذه المرة. في الواقع لا يكفي أن يمتلك المرء أطفالاً، فيجب أن يكون لديه الوقت لتربيتهم.

هكذا يا إلهي. لا أعرف ما أطلبه منك اليوم، لأن اليوم كان جيداً. عرفت! لتَسِر عملية بيغي بلو غداً بشكل جيد. وليس كعمليتي، إن كنت تفهم قصدي.

إلى الغد، أقبلك،

أوسكار.

ملاحظة: العملية شيء لا ينتمي للروحانيات ومن المحتمل أنها لا تدخل في مجال اختصاصك. إذن مهما كانت نتيجة عملية بيغي بلو اجعلها تتقبلها بطريقة جيدة. أعتمد عليك.

إلهي العزيز...

اليوم أجروا العملية لبيغي بلو. لقد قضيت عشر سنوات مريعة. الثلاثون هو عمر صعب، سن المشاغل والمسؤوليات. في الحقيقة لم تستطع بيغي الحضور إلي ليلاً لأن المدام دوكرو ـ الجليسة الليلية ـ قضت الليلة كلها في غرفتها كي تُحضِّرها للتخدير. وأَخَذَتها النقّالة في الثامنة صباحاً. انقبض قلبي حين رأيت كيف يجرّونها صغيرة ونحيلة وبالكاد تُرى تحت الملاءات الخضراء. كانت الماما الوردية تمسك بيدي كي لا أتوتر كثيراً.

ـ لماذا يسمح إلهك أيتها الماما الوردية بأن يظهر في العالم أمثالي أنا وبيغي؟

ـ من حسن الحظ أنه يسمح بذلك يا صديقي أوسكار، فمن دونكم ما كانت الحياة جميلة هكذا.

ـ لا. أنت لا تفهمين. لماذا يسمح الإله بأن نمرض؟ هذا معناه أنه إما شرير أو ليس كلي القدرة هكذا.

ـ المرض كالموت يا أوسكار. هبة وليس عقاباً.

ـ فوراً يتوضح أنك لست مريضة.

ـ وما الذي تعرفه عن هذا يا أوسكار؟

لقد صعقني هذا. فلم يخطر لي أبداً أن الماما الوردية اللطيفة والمهتمة دائماً يمكن أن يكون لديها مشاكلها.

ـ لا يجب أن تخفي عني شيئاً أيتها الماما الوردية، أخبريني بكل شيء. عمري اثنان وثلاثون عاماً كحد أدنى، لدي سرطان، وزوجتي في هذه اللحظة في غرفة العمليات، أنا أفهم في هذه الأمور.

ـ أنا أحبك يا أوسكار.

ـ وأنا أيضاً. وإن كنتِ في ورطة فكيف أستطيع أن أساعدك؟ هل تريدين أن أتبنّاك؟

ـ تتبنّاني أنا؟

ـ أجل، فقد تبنيت برنار حين رأيت أنه مكتئب.

ـ برنار؟

ـ دبدوبي. إنه هناك في الخزانة. على الرف. إنه دبي القديم، وما عاد لديه لا عينان ولا فم ولا أنف وتساقطت

منه نصف النشارة، ولديه ندوب في كل مكان. إنه يشبهك قليلاً. لقد تبنيته في تلك الأمسية التي أحضر لي فيها سخيفاي دباً جديداً. وكأنني سأقبل بواحد جديد! ليس أمامهم الآن إلا أن يستبدلوني بأخ جديد. منذ تلك اللحظة قمت بتبنيه. وقد أوصيت لبرنار بجميع ممتلكاتي. أريد أن أتبناك أيضاً إن كان ذلك سيرفع من معنوياتك.

ـ أجل. أرغب بذلك. أعتقد أن هذا سيرفع من معنوياتي ياأوسكار.

ـ صافحيني إذن أيتها الماما الوردية.

ثم ذهبنا لنجهّز الغرفة لعودة بيغي، أحضرنا الشوكولا، ووضعنا الورود. ثم نمت. لا يعقل كم أنام الآن. في نهاية النهار أيقظتني الماما الوردية قائلة أن بيغي بلو قد عادت وأن العملية تكللت بالنجاح. ذهبنا إليها سويةً. وكان هناك أهلها. لا أعرف من الذي أخبرهم، بيغي أم الماما الوردية، ولكن كان واضحاً أنهما يعرفان من أنا، عاملاني باحترام وأجلساني على الكرسي بينهما، وكان باستطاعتي أن أناوب عند سرير زوجتي مع حماي وحماتي.

كنت راضياً أن بيغي ماتزال كالسابق سماوية اللون. دخل الدكتور دوسلدورف، حكّ حاجبيه وقال إن اللون السماوي سيزول بعد بضع ساعات. كنت أنظر إلى والدة

بيغي، هي ليست سماوية، ولكنها جميلة جداً رغم ذلك، وفي النهاية قلت لنفسي إن زوجتي بيغي تستطيع امتلاك اللون الذي تريد. لأنني رغم كل شيء سأظل أحبها. فتحت بيغي عينيها وابتسمت لنا، لي ولوالديها، وعادت للنوم. هدأ والداها ولكنهما كانا مضطرين للذهاب.

ـ نؤمّنك على ابنتنا ـ هكذا قالا لي ـ نعرف أنه يمكن الاعتماد عليك.

بقيت جالساً مع الماما الوردية إلى أن فتحت بيغي عينيها مرة أخرى، ثم ذهبت لأرتاح في غرفتي. مع نهاية الرسالة أعترف أن اليوم كان موفّقاً بالمحصلة. يوم عائلي. تبنيت الماما الوردية، وبنيت علاقات حميمة مع حماي وحماتي، وزوجتي عادت إلي في حالة جيدة، رغم أنها أصبحت وردية قرابة الساعة الحادية عشرة.

إلى الغد، أقبلك،

أوسكار.

ملاحظة: ليس لدي اليوم أي أمنيات. يمكنك أن ترتاح.

إلهي العزيز...

اليوم صار عمري بين الأربعين والخمسين وأنا لاأرتكب سوى الحماقات. سأخبرك بسرعة لأن كل ذلك لايستحق وقتاً أطول. بيغي بلو في حالة لا بأس بها ولكن الصينية التي أرسلها بوبكورن، الذي أصبح لا يطيقني الآن، نَمَّت لبيغي أنني قبلتها على شفتيها. وبسبب ذلك قالت لي بيغي أن الأمر بيننا قد انتهى. اعترضت وقلت أن الصينية هي نزوة صِباي وأن كل هذا حصل قبل بيغي بلو وأنها لاتستطيع إجباري على أن أدفع ثمناً للماضي حياتي كلها. ولكنها لم تهادن. حتى أنها تصادقت مع الصينية كي تغضبني وكنت أسمعهما تضحكان سوياً. وعندها سمحتُ لبريجيت، وهي كلبة عمرها ثلاثة أشهر، تلاطف الكل، وهذا طبيعي لأن الجراء حنونة دائماً، سمحت لها حين أتت صباحاً إلى غرفتي لتسلّم علي أن تلعقني من رأسي حتى قدميّ. كم كانت سعيدة! كالمجنونة! وكأنها أقامت

لصاحبها حفلة حقيقية. المصيبة أن آينشتاين كان في الممر في هذه اللحظة. صحيح أن في مخّه ماء ولكن عينيه على مايرام. لقد رأى كل شيء وأخبر بيغي والصينية. والآن أصبح الطابق كله ينعتني بالفلتان الصائع، رغم أنني لا أفلت حتى من غرفتي.

ـ لا أعرف ما الذي حصل لي بشأن هذه البريجيت أيتها الماما الوردية.

ـ نزوة يا أوسكار. كل الرجال هكذا بين الأربعين والخمسين، إنهم واثقون من أنفسهم، ويحاولون أن يتأكدوا إن كانوا يُعجِبون نساءً أخريات غير تلك التي يحبونها.

ـ حسناً، لنفترض أنني طبيعي مثل الكل ولكن مؤكد أنني غبي أيضاً أليس كذلك؟

ـ أنت طبيعي تماماً.

ـ وماذا علي أن أفعل الآن؟

ـ من تحب؟

ـ بيغي وبيغي فقط.

ـ أخبرها بذلك إذن. الزواج الأول دائماً هش جداً، وينهار بسهولة، ولكن يجب أن تحارب للحفاظ عليه إن كان ناجحاً.

غداً عيد الميلاد يا إلهي. لم أكن أدرك من قبل أن هذا عيد ميلادك. اجعلني أتصالح مع بيغي، لأنني لا أعرف إن كان السبب هو خلافنا، ولكنني أشعر الآن بحزن شديد ولم يبق لدي أي نشاط في الروح.

إلى الغد، قبلاتي،

أوسكار.

ملاحظة: بما أننا أصبحنا أصدقاء الآن، أخبرني ماذا أهديك في عيد ميلادك؟

إلهي العزيز...

في الثامنة صباحاً أخبرت بيغي بلو بأنني أحبها ولم أحب أحداً غيرها ولا أتصور حياتي من دونها. فبَكَت واعتَرَفَت أنني سببت لها مصيبة كبيرة لأنها أيضاً لا تحب سواي ولن تستطيع أن تجد أحداً آخر وخاصة الآن بعد أن أصبح لونها وردياً. ومن المثير للفضول أنه بعدها بدأنا نبكي سوياً ولكن ذلك كان لذيذاً جداً. حياة الزوجية، روعة. وخاصة بعد الخمسين بعد أن نترك خلفنا الكثير من التجارب. عندما دقت الساعة العاشرة أدركت فعلياً أنه عيد الميلاد وأنني لن أستطيع البقاء مع بيغي لأن أسرتها ستأتي إلى غرفتها الآن ـ أخوتها، أعمامها، أولاد أعمامها وبنات أعمامها ـ بينما أنا مضطر لتحمّل والديّ. ماذا سيهديانى اليوم؟ «بَزل» (أحجية) من ثماني عشرة ألف قطعة؟ كتاب باللغة الكردية؟ علبة أخرى مع طريقة الاستعمال؟ صورتي في الأيام التي كنت فيها معافى؟ يمكن توقع أي خطر من

سخيفين مثلهما ذوي دماغين صغيرين كأدمغة الدجاج، ومعهما يجب أن يخاف المرء من كل شيء، والواضح هو شيء واحد فقط: أن يومي سيكون تافهاً.

اتخذت القرار بسرعة كبيرة: دبّرت الهروب لنفسي. سأقوم بمقايضة: الألعاب لآينشتاين، الفرشة لشحم الخنزير المدخن، والسكاكر لبوبكورن. بعض نتائج المراقبة: الماما الوردية قبل أن تغادر تدخل دائماً إلى غرفة تبديل الملابس. بعض الافتراضات: لن يأتي والداي قبل الثانية عشرة. سار كل شيء بسهولة: في الحادية عشرة والنصف قبلتني الماما الوردية وتمنت لي قضاء عيد ميلاد سعيد مع والدَيّ ونَزلَت إلى غرفة تبديل الملابس. صَفَّرت. ألبسني بوبكورن وآينشتاين وشحم الخنزير المدخن بسرعة، رفعوني وحملوني إلى خردة الماما الوردية، سيارتها المصنوعة حتماً قبل عهد ظهور السيارات. فتح بوبكورن الباب الخلفي بسهولة، فقد كان موهوباً جداً بكسر الأقفال لأنه كبر من حُسنِ حظّة في حيّ منحوس، وأنزلوني على الأرض بين المقعد الأمامي والخلفي. ثم ـ ودون أن يلمحهم أحد ـ عاد الثلاثة إلى المبنى. بعد فترة من الوقت، بالأحرى ليس سريعاً جداً، جلست الماما الوردية في السيارة. نخر المحرك وعطس حوالي 15 مرة إلى عشرين مرة قبل أن تَتَمَكَّنَ من تشغيله وأخيراً انطلقنا في هذا القطار الجهنمي. هذه السيارات القديمة معجزة بالفعل، فهي تصدر قرقعة

حتى ليُخيّل إليك أنها تسير بسرعة كبيرة وتقفز بطريقة وكأنك وصلت إلى مزرعة قروية. المشكلة تكمن في أن الماما الوردية تعلمت القيادة بمساعدة صديق يعمل كممثل بديل لأداء الحيل الخطرة فما كانت تهتم بإشارات المرور، أو الأرصفة أو الحركة ضمن الدوار. ومن وقت لآخر كانت العربة تطير في الهواء. في قمرة الطيار لم يكن كل شيء هادئاً، فقد كانت تزمّر كثيراً والمفردات التي كانت تستخدمها أغنت قاموسي اللغوي كثيراً: لقد كانت تتقاذف بأفظع الكلمات، لكي تقهر الأعداء الذين صادفتهم في طريقها فذكّرت نفسي من جديد أن المصارعة هي مدرسة رائعة للحياة.

كنت أتوقع عندما نصل أن أقفز وأصرخ: «مفاجأة أيتها الماما الوردية» ولكن سباق الحواجز كان طويلاً جداً لدرجة أنني نمت في الطريق. استيقظت في الظلام والبرد والهدوء واكتشفت أنني مستلق وحدي على بساط مُبتلّ. وهنا خطر لي لأول مرة أنني ربما قد ارتكبت حماقة. خرجت من السيارة وفي هذه اللحظة هطل الثلج. ويجدر القول أنه لم يكن لطيفاً مثل «فالس ندف الثلج» أو «كسارة البندق». كانت أسناني تصطك وحدها دون إرادتي. رأيت بيتاً كبيراً مضاء فسرت نحوه. كنت أشعر بالسوء. ولكي أرن الجرس اضطررت للقفز عالياً لدرجة أنني بعدها هويت على البساط. وهناك وجدتني الماما الوردية.

ـ هيه.. هيه.

كانت تحاول أن تقول شيئاً. ثم انحنت فوقي وهمست:

ـ عزيزي..

وعندها فكرت أنني ربما لم أرتكب حماقة. حَمَلَتني إلى غرفة الضيوف حيث انتصبت شجرة عيد ميلاد كبيرة تومض بالأضواء. استغربت كثيراً كم كان منزل الماما الوردية جميلاً من الداخل. أدفأتني عند النار وشربنا الشوكولا الساخنة. كنت أتكهن أنها تريد التأكد من أنني على مايرام قبل أن توبخني. لذلك كنت أحاول إطالة الوقت بينما أستعيد وعيي، ولكن ليس عن قصد، لأنني حتى هذه اللحظة كنت متعباً جداً بالفعل.

ـ الكل يبحث عنك في المشفى يا أوسكار. بلبلة حقيقية في ساحة المعركة. والداك يائسان. وقد أبلغا الشرطة.

ـ يمكن أن يتوقع المرء منهما حتى هذا. إن كانا غبيين لدرجة أنهما يعتقدان بأنني في الأصفاد سأحبهما أكثر.

ـ بماذا تتهمهما؟

ـ إنهما يخافان مني. لا يجرؤان على التحدث معي. وكلما قَلَّت جرأتهما أصبحت أبدو في نظر نفسي وحشاً أكثر. لماذا أسبب لهما هذا الذعر؟ هل أنا قبيح إلى هذا

الحد؟ هل تفوح رائحتي؟ هل صرتُ أحمقاً ولا أدرك ذلك؟

- إنهما لا يخافان منك يا أوسكار بل من المرض.

- مرضي هو جزء من نفسي. لا يجب أن يتصرفا بطريقة مختلفة بسبب مرضي. أم أنهما لا يستطيعان أن يحبا إلا أوسكار المعافى؟

- إنهما يحبانك يا أوسكار. لقد أخبراني.

- هل تحدثتِ معهما؟

- أجل. إنهما يغاران مني بسببك. لا.. ليست غيرة بل حزن. إنهما حزينان لأنهما لا يستطيعان التفاهم معك مثلي.

هززت كتفي ولكن غضبي هدأ قليلاً. صنعت لي الماما الوردية كأساً آخر من الشوكولا الساخنة.

- أتعرف يا أوسكار؟ ستموت يوماً ما. ولكن والديك سيموتان أيضاً.

فاجأني ما سمعت فلم أفكر بذلك يوماً.

- أجل.. سيموتان أيضاً. وحدهما تماماً. ومع تأنيب ضمير قاتل، لأنهما لم يتمكنا من التصالح مع ولدهما الوحيد الذي يدعى أوسكار والذي كانا يعبدانه.

- لا تتكلمي هكذا أيتها الماما الوردية، أنت تحزنينني.

ـ فكر بهما يا أوسكار. لقد أدركتَ أنك ستموت قريباً لأنك صبي ذكي جداً. ولكنك لم تفهم أنك لن تموت وحدك. الكل يموتون. وحتى والداك. وأنا أيضاً في اليوم المحدد.

ـ أجل. ولكن في جميع الأحوال أنا سأرحل أولاً.

ـ صحيح.. أنت سترحل أولاً. ولكن هل يعطيك واقع أنك ستذهب أولاً حقوقاً إضافية؟ مثلاً الحق في أن تنسى الآخرين؟

ـ فهمت كل شيء أيتها الماما الوردية. اتصلي بهما.

إليك يا إلهي التتمة بالخطوط العريضة لأن يدي تتعب من الكتابة. اتصلت الماما الوردية بالمشفى وهم اتصلوا بدورهم بوالديّ اللذين أتيا عند الماما الوردية فاحتفلنا سوياً بعيد الميلاد.

عندما وصل والداي قلت لهما:

ـ سامحاني، فقد نسيت أنكما أيضاً ستموتان يوماً.

لا أعرف إن كانت هذه العبارة قد حررتهما، ولكنهما عادا كما كانا في السابق، وقضينا ليلة عيد ميلاد رائعة. وكتحلية أرادت الماما الوردية أن تشاهد على التلفاز قدّاس العيد ومباراة مصارعة مسجلة على شريط. وقالت أنها منذ عدة سنوات تشاهد قبل القداس مباراة ما كي تستطيع أن تسترد قواها، إنها عادة تُمتِعُها كثيراً.

بالمحصلة شاهدنا جميعاً المعركة التي اختارتها هذه المرة. وكانت رائعة. «ميفيستا» ضد «جان دارك». المايوه ضد الدرع. امرأتان رائعتان! كما قال لي أبي الذي أصبح أحمر اللون تماماً، أعتقد أنه أحب المصارعة كثيراً. لاتعقل كمية الضربات التي تبادلتاها على الوجه. في معركة مشابهة لكنت مُتُّ ألف مرة. إنها مسألة تدريب - قالت لي الماما الوردية - كلما تلقيت كمية أكبر من الضربات على الوجه استطعتَ تلقي كمية أكبر في المستقبل. يجب دائماً أن تتفاءل بالأفضل. بالمحصلة فازت «جان دارك» رغم أنه بدايةً كان من الصعب تصديق فوزها: لا بد أن ذلك يروق لك. بالمناسبة، عيد ميلاد سعيد ياإلهي. الماما الوردية التي وضعتني لأنام في سرير ابنها الأكبر - إنه طبيب بيطري في الكونغو، يعالج الفيلة - أخبرتني أن مصالحتي مع والديّ هدية جيدة لك في عيد ميلادك. في الحقيقة أنا لا أعتبر هذا بديلاً عن الهدية ولكن إن كانت الماما الوردية صديقتك العجوز تقول ذلك..

إلى الغد. أقبلك،

أوسكار.

ملاحظة: نسيت أن أخبرك بأمنيتي: ليبق والداي دائماً كما هما اليوم. وأنا أيضاً. كان عيد ميلاد رائعاً وخاصة المباراة بين «ميفيستا» و«جان». أعذرني ولكنني لم أشاهد القدّاس، فقد أطفأتُه قبلاً.

إلهي العزيز...

لقد تجاوزت الستين وأنا نادم على كل الاستهتارات التي سمحت بها لنفسي البارحة. فأنا لست في حالة جيدة اليوم.

عدت إلى المشفى بسرور. عندما يصبح المرء عجوزاً تصير الأمور هكذا، والمغامرات لا تعود تَسُرّ. لا تعود هناك رغبة بمغادرة المكان. ما نسيت أن أقوله لك في رسالة البارحة هو ما يتعلق بالتمثال الصغير لبيغي بلو، الذي شاهدته البارحة في منزل الماما الوردية على الرف، فوق الدرج. أقسم لك أنها نفسها، من الجبصين، الملابس والجلد سماوية اللون. الماما الوردية تعتبر أنها السيدة مريم، أمك، حسب ما فهمت، غرض قدّسته عدة أجيال عاشت في هذا البيت. وافقَت أن تهديني التمثال. وضَعتُه على الطاولة قرب رأسي. في جميع الأحوال سيعود في النهاية إلى الماما الوردية، بما أنني تبنّيتُها. بيغي بلو

تشعر بتحسن. لقد أتت لزيارتي على كرسيّها المتحرك. لم تعرف نفسها في التمثال ولكننا قضينا وقتاً رائعاً سوياً. استمعنا لـ «كسارة البندق» ممسكين بأيدي بعضنا مما ذكّرنا بالماضي الرائع.

لن أكمل لأن القلم ثقيل بعض الشيء. الكل هنا مرضى حتى الدكتور دوسلدورف بسبب الشوكولا، معجون لحم البط، الكستناء المشوية والشمبانيا التي ضيّفها والداي بكميات كبيرة للطاقم الطبي. أرغب كثيراً أن تأتي إلي.

قبلاتي، إلى الغد،

أوسكار.

إلهي العزيز...

اليوم صار عمري بين السبعين والثمانين، وغيّرت رأيي بالكثير من الأشياء. أولاً استخدمت هدية عيد الميلاد التي أهدتني إياها الماما الوردية. لا أعرف هل أخبرتك عنها؟ إنها نبتة من الصحراء تعيش حياتها كلها خلال يوم واحد فقط. يكفي أن تروي النبتة بالماء حتى تعطي فرعاً صغيراً وبرعماً، ثم أوراقاً، ثم تظهر عليها وردة وبذور على الفور، ثم تذبل النبتة وتتكرنش و.. هوب! ينتهي كل شيء عند المساء. إنها هدية عبقرية، أشكرك لأنك اخترعتها. في السابعة من صباح اليوم سقيناها أنا والماما الوردية وأهلي، لا أذكر إن كنت قد أخبرتك أن والدَيّ يسكنان الآن عند السيدة الوردية، فالمسافة من بيتها إلى هنا أقرب، وهكذا استطعت أن أراقب حياتها كلها. صحيح أن النبتة هزيلة كفاية والوردة بائسة

ولايمكن مقارنتها بأي شكل من الأشكال بالـ «باوباب»[*] ولكنها أدت عملها بشجاعة أمام أعيننا، خلال يوم واحد، دون توقف وكأنها نبتة حقيقية كبيرة.

قرأنا أنا وبيغي طويلاً المعجم الطبي. إنه كتابها المفضل. فهوايتها الأمراض ودائماً تطرح على نفسها سؤالاً: أي من هذه الأمراض عليها أن تصادف بعد. وأنا نظرت إلى تلك الكلمات التي تثير انتباهي: «الحياة»، «الموت»، «الإيمان»، «الله». صدقني أو لا، ولكنها لم تكن موجودة هناك! لاحظ أن ذلك يعني شيئاً واحداً وهو أن لا الحياة ولا الموت ولا الإيمان ولا أنت هي أمراض. على الأغلب إنه خبر جيد. ولكن في كتاب جدّي كفايةً يجب أن توجد أجوبة عن أكثر الأسئلة جدّية، أليس كذلك؟

- يخيل إلي أيتها الماما الوردية أن المعجم الطبي يحتوي فقط الحالات الخاصة، والمشكلات التي يمكن أن يصادفها أي إنسان. ولكن ليس هناك ما يتعلق بالجميع كالحياة والموت والإيمان والله.

- ربما من الأفضل أن تأخذ المعجم الفلسفي ياأوسكار. ولكن حتى لو وجدت فيه المفاهيم التي تبحث عنها اعتقد أن ما سينتظرك هو خيبة الأمل: الأجوبة والتفاسير كثيرة وهي مختلفة.

(*) نوع من الأشجار الضخمة.

ـ كيف يمكن أن يحدث هذا؟

ـ أكثر الأسئلة إثارة للفضول تبقى أسئلة. إنها تحتوي على لغز. ويجب دائماً أن تضيف إلى كل جواب كلمة «ممكن». فقط الأسئلة قليلة الأهمية تمتلك أجوبة نهائية.

ـ تريدين أن تقولي أنه ليس للـ «حياة» أحكاماً؟

ـ أريد أن أقول أن للـ «حياة» أحكاماً عديدة وبهذا ليس لديها «حكم» واحد فقط.

ـ وأنا أعتقد أيتها الماما الوردية أن الحكم الوحيد للـ «حياة» هو العيش.

دخل إلينا الدكتور دوسلدورف. وهو مايزال كالسابق يشبه كلباً مضروباً وهذا، إضافة إلى حاجبيه الأسودين الكبيرين، يجعل منظره مُعَبِّراً جداً.

ـ هل تمشط حاجبيك يا دكتور دوسلدورف؟

سألت.

نظر حوله بذهول وكأنه يتأكد من الماما الوردية، ووالديّ إن أخطأ السمع. وانتهى الأمر بأنه أجاب بـ «نعم» بصوت مخنوق.

ـ غيّر تعابير وجهك يا دكتور دوسلدورف. اسمع، سأتحدث إليك بصراحة تامة، لأنني كنت دائماً مواظباً فيما يتعلق بالأدوية وأنت فعلت ما بوسعك فيما يتعلق بالمرض.

تخلى عن نبرتك المذنبة. ليس ذنبك أنك مضطر لإخبار الناس بالأخبار السيئة عن الأمراض ذات التسميات اللاتينية وعن عدم القدرة على شفائها. استرخ وابعدِ الهمّ عن وجهك. فأنت لست الإله ـ الرب. لستَ أنت من يتحكم بالطبيعة، أنت تُصلّح فقط. تنازل، خفف التوتر، لا تحمّل نفسك أكثر مما تستطيع حمله، وإلا لن تستمر طويلاً في منصبك. انظر إلى نفسك.

فتح الدكتور دوسلدورف فمه، وكأن عليه أن يبتلع بيضة، وهو يستمع إلي. ثم ابتسم ابتسامة حقيقية وقبّلني.

ـ أنت على حق يا أوسكار. شكراً لأنك قلت لي هذا.

ـ لا شكر على واجب يا دكتور. أنا رهن خدمتك. مرّ عليّ وقتما تشاء.

هذا ما حصل يا إلهي. ورغم ذلك مازلت انتظر زيارتك. تعال. لا تتردد. مرّ عليّ حتى لو كان لدي زوّار في هذا الوقت. سأكون سعيداً جداً.

إلى الغد، أقبلك،

أوسكار.

إلهي العزيز...

بيغي بلو سافرت. عادت إلى بيتها وأهلها. لستُ غبياً وأعرف أنني لن أراها بعد الآن. لن أكمل الكتابة لأنني أشعر بحزن شديد. لقد عشنا معاً حياة كاملة، بيغي وأنا، والآن أصبحتُ وحيداً تماماً، أصلعَ، عجوزاً خرفاً ومتعباً من الاستلقاء في سريره. كم هي الشيخوخة مقرفة. اليوم أنا لا أحبك.

أوسكار.

إلهي العزيز...

شكراً لأنك أتيت. وكأنك اخترت اللحظة المناسبة لأن أموري ليست على مايرام. لا بد أنك زعلت من رسالتي بالأمس.

عندما استيقظت فكرت أن عمري أصبح الآن تسعين سنة، والتفَتَتُّ برأسي نحو النافذة لأشاهد الثلج. عندها حزرت أنك أتيت. كان الصباح. وكنتُ وحيداً على الأرض. كان الوقت باكراً لدرجة أن الطيور ماتزال نائمة، وحتى المدام دوكرو، الجليسة الليلية، كانت تشخر. وأنت كنت تحاول أن ترتِّب الفجر. كان الأمر صعباً عليك ولكنك كنت مصراً. كانت السماء تشحب. كنتَ تنفخ في الهواء الأبيض، الرمادي، السماوي، تدفع الليل وتعيد العالم إلى الحياة. ولم تَكُفَّ ولو لدقيقة. وعندها أدركت الفرق بينك وبيننا: أنت فتى لا يمل! أنت لا تتعب! تعمل دائماً! وهاكم النهار! وهاكم الليل! الآن الربيع! الآن الشتاء! وهاهي بيغي بلو!

وهاهو أوسكار! والماما الوردية! يالها من صحّة! فهمت أنك هنا. وأنك أطلعتني على سرك: انظر إلى العالم دائماً وكأنك تراه لأول مرة. عندها اتّبعت نصيحتك وبذلت جهدي. ولأول مرة تأمّلت النور، الألوان، الأشجار، الطيور والحيوانات. شعرتُ الهواء بمنخريّ، كنت أستنشقه. سمعت أصواتاً في الممر وكأنها من تحت قبة كاتدرائية. شعرت أنني أحيا. وأرتجف من السعادة الخالصة. سعادة الوجود. كنتُ مذهولاً.

شكراً يا إلهي لأنك فعلت هذا من أجلي. كنت أتخيل أنك أخذتني من يدي وقُدتني إلى قلب السر - لتأمل السر. اشكرك.

إلى الغد، قبلاتي،

أوسكار.

ملاحظة: أمنيتي: هل تستطيع أن تفعل الشيء نفسه لوالدَيّ؟ (تنظر، كما في المرة الأولى). أعتقد أن الماما الوردية قد مرت بهذا من قبل. وكنت أرغب بذلك لبيغي أيضاً، هذا إذا كان لديك وقت.

إلهي العزيز...

صار عمري مئة. أنام كثيراً ولكنني أشعر أنني بحالة جيدة. كنت أحاول أن أشرح لوالديّ أن الحياة هبة غريبة. في البداية نغالي في تقديرها: ونعتقد أننا استلمناها لنستخدمها دوماً. ثم نسيء تقديرها حين نجد أن الحياة قصيرة جداً وغير كاملة ونكون مستعدين تقريباً للتخلي عنها. وفي النهاية ندرك أنها لم تكن هبة بل دَيْن. وعندها نحاول أن نستحقه. عمري مئة عام وأنا أعرف عما أتحدث. كلما تقَدّمْتَ في السن، يجب أن يكون ذوقك أفضل كي تقدّر الحياة. يجب أن تصبح نقياً وحاذقاً. أيّ أبله يستطيع أن يستمتع بالحياة في عمر العاشرة أو العشرين، ولكن في عمر المئة، حين لن تعود حتى قادراً على الحركة، من الضروري استخدام الذكاء. لا أعرف إن كنتُ اقنَعتُهما.

زُرهما. عملي انتهى. لقد تعبت قليلاً.

إلى الغد، أقبلك،

أوسكار.

إلهي العزيز..

مئة وعشرة أعوام كثيرة جداً. أعتقد أنني بدأت أموت.

أوسكار.

إلهي العزيز...

مات الصبي. الآن سأعود كما في السابق «السيدة الوردية» ولكنني لن أصبح أبداً مرة أخرى «الماما الوردية». فقد كنت كذلك فقط لأوسكار. لقد انطفأ صباح اليوم خلال نصف ساعة، حين تغيّبت أنا ووالديه لنشرب القهوة. لقد فعل ذلك من دوننا. اعتقد أنه اختار اللحظة عن قصد كي يرحمنا. وكأنه كان يحاول أن يحمينا من الحزن حين نرى رحيله. في الواقع هو الذي كان يناوب قربنا، ولسنا نحن قربه. أشعر بثقل على قلبي وأشعر بثقل على روحي. فهناك يسكن أوسكار وأنا لا استطيع نسيانه. يجب أن أتمهل بالدموع حتى المساء لأنني لا أريد أن أقارن ألمي بحزن والديه الذي لن يخمد.

أشكرك لأنك عرّفتني على أوسكار. فبفضله كنتُ مسلية، أخترع الخرافات وأصبحتُ حتى خبيرة بالمصارعة. لقد ساعدني كي أؤمن بك. أنا ممتلئة

بالحب، إنه يحرقني. لقد منحني الكثير لدرجة أنه سيكفي لسنوات كثيرة قادمة.

إلى اللقاء.

الماما الوردية.

ملاحظة: في الأيام الثلاثة الأخيرة علّق أوسكار ملصقاً فوق الطاولة عند رأسه. أعتقد أنه يتعلق بك. كان مكتوباً عليه «لا يحق سوى لله أن يوقظني».

أوسكار والسيدة الوردية

«إن المدهش في هذه الرواية أو القصة الطويلة «أوسكار والسيدة الوردية»، للكاتب «اريك إيمانويل شميدت»، هو تعدد الموضوعات الجانبية التي تدور في فلكِ الموضوع الرئيسي ـ مواجهة الموت ـ فتضيئة من جوانب مختلفة، وتغنيه وتكشف عن المعاناة المعقدة والمشاعر المضطربة التي تنتاب الإنسان في مثل هذه الحالة. موضوعات مثل: العزلة، الشعور بالوحدة، الإحباط، الإعاقة، التواصل، الألم، الحزن، الخوف، ولوج حالة الموت، الحب، الأمل، الفرح، الشعور بالفردية، البقاء، الزمن، الصدمة، العلاقة مع الأسرة، الجنس، الإيمان، الصلاة كعلاج، الحرية، تجربة المرض، جو المستشفى، العناية بحب والعناية كواجب، أخلاق المريض وأخلاقية الطبيب. كل هذه الموضوعات وغيرها تمرُّ في مخيلة المؤلف لتنسرب إلى قلمه بانسيابية مرهفة وحِرفية ذواقة بهدف تصوير مأساة أوسكار التي انتهت نهاية مبهجة وخفيفة الظل، على الرغم من كل إشكالياتها.

لقد قاد شميدت أحداث وشخصيات قصته الطويلة نحوَ القناعة أن الإيمان الشخصي النابع من بؤرة التجربة هو الذي يوصل الإنسان إلى الخلاص الحقيقي، من دون وعظ ولاتبشير».

«اريك إيمانويل شميدت»، كاتب مسرحي، كاتب مقالة، روائي، وكاتب سيناريو فرنسي. ولد في 28 آذار من العام 1960 في ليون.

إن روعة «أوسكار والسيدة الوردية» تكمن في حماسة طاقتها. ليس هناك تناقض وعدائية بين البشر المُنتمين إلى قوميات وأديان مختلفة. هناك قابلية لاختيار المُعتقد، الأصدقاء وحتى الأسرة.

